المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

من القصص الإسلامي

حسين الطوحي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم

الاستاذ الدكتور احمد الحوفى

استاذ الادب العربى
بكلية دار العلوم

أرأيت الى الدوحة العظيمة التى كانت جذورها تضرب فى أعماق الأرض، وأفنانها تتعالى الى عنان السماء، تفيء ظلالها على ما حولها، وتجود بأحلى الثمرات وأشهاها، فيطعم الناس من جناها بكرة وعشيا ؟

ثم شاء الله أن تسترد شبابها وقواها، فركب أصولها، وسمت فروعها، وبدت سائر ثمراتها

ذلك مثل الأمة العربية فى ماضيها المجيد، وما وليه من تخلف وجمود، ثم ما تلاه من بعث وانطلاق

وما من شك فى أن الأمة العربية — وهى تستشرف مثلها العالية، وتعدو نحوها عدوا لا تكل ولا تتوقف — فى حاجة الى حوافز من عهدها الذهبى السالف، تزيد قوتها قوة، وتضيف الى ثقتها بنفسها ثقة، وتكشف لها عن أصالة فى المجد، وعراقة فى العظمة، ونبالة فى ميادين العلم والأدب والحضارة والأخلاق

ولم نكن ضربا من العبث ما ردده شعراء العصر الحديث وكتابه من مفاخر ماضينا الاسلامى ، ولم نكن من نافلة القول ان نكلف العلماء والكتاب بالكشف عن جلائل ما اسداه سلفنا الصالح الى الانسانية من قيم روحية ومثل عالية وجهود شتى فى مجال الحياة الكريمة الرافهة

لهذه المعانى وما تتصل بها قرأت هذه القصص التاريخية التى كتبها الأستاذ حسن الطـوخى ، فشاقتنى ، لأنه يوحى برسم كثير من الصــور المشرقة لنواح من تاريخنا العربى الاسلامى العريق ، فى اســلوب جاذب ، وتصوير شائق ، وعناية باحداث وقعت واهملها التاريخ ، او هى لم تقع ولكنه تخيلها فى غير تكلف او تمحل او افتيات على الجو العام

وانه لمن الميسور على القارىء أن يستخلص من كل قصة عدة صور وعدة مفاخر ، وعدة عبر

فهو مثلا يجد فى (بيت من الشعر) عدالة الخليفة المهدى ورحمته وتقيته بأنه المسئول الأول عن الشعب ، فجلس بنفسه للفصل فى المظــالم ثم يزيد على هذا ان يعد حجرة فى الطريق العام ليطرح الناس شكاياتهم من شباكها الحديدى ، ويستقل الخليفة بالاطلاع على هذه الشكاوى

ويتبين القارىء آثار سياسة المهــدى فى اســتقرار الامن ، وطمأنينة الشعب ، وانتشار الرخاء ، ووفرة الغذاء والكساء

ثم يحس بآثار هذا كله فى طمأنينة الخليفة ، حتى انه اروى ظمأه الى المعرفة ، فكان مجلسه بالرصافة حافلا بجلة العلماء والأدباء والمحدثين والفقهاء ، يحاورهم ويحــاورونه ، وقد اختلف مرة مع اســحاق بن ربيع فى أعظم بيت قاله شاعر فى الفخر ، وانتهى الخلاف الى تحكيم العــالم الراوية المفضل الضبى

وحينما يقرا قصة (رجل من البادية) تتصور بأس الحجاج بن يوسف الثقفى ، ومقدرته على اخماد الفتن ، وتجد صورة فكهة لما دار بينه وبين

قرينه حسان بن مسعود الثقفى ، ثم نحس بدهاء هــذا البدوى ، اذ ولاه الحجاج خراسان ، فبرع فى ضبط شئونها ، وسلك الحيلة الناجحة مع اهلها ، فتفاداهم الخراج بعد ان طالت مراوغتهم لسادتهم

وهكذا يرسم الأستاذ حسين الطوخى فى كل قصة تاريخية عــدة صور توحى بعمل عظيم او بخلق كريم

واحسب انه لا ضير على القاص فى ان يبعد عن بعض الحــقائق التاريخية بعض البعد ، فيغفل شيئا ، أو يزيد حدثا ، او يفصل امرا ، لأنه يكتب مستمدا من عواطفه وميوله وخيــاله ومتأثرا بآرائه ، اما المؤرخ فانه يسجل الوقائع ، وينظمها ، ويفسرها ، ويعلق عليها ، فى اطار من قيود علمية لا يتعداها

ومن هنا كان القاص والمؤرخ يختلفان فى العمل والطريقة والهدف

وبعد ، فهذه عدة قصص تاريخية أرجو ان يكون فيها امتاع وتسلية ونفع للناس



"شعاع من القلب ..."؟؟

لم يحظ « معاوية بن أبى سفيان » بخلافة المسلمين فى العام الأربعين للهجرة عنوة بقوة السيف ، او بالعصبية الهوجاء ، او بغير ارادة العرب والمسلمين ، وانما حظى بها لأنه كان يملك محبة القلوب واجتماعها عليه فى الشام وفى أرض الجزيرة على السواء ، بالرغم من قرابة « على بن أبى طالب » للرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه

ويوم أن احتكم على ومعاوية الى الناس فى صفين ، وارتضوا ابا موسى الأشعرى ممثلا للأول ، وعمرو بن العاص ممثلا لثانيهما ، ثم جاءت نتيجة التحكيم فى صالح معاوية ، لم يجزع المسلمون لاختيار معاوية خليفة لهم ، بل على النقيض من ذلك ، رضى الناس فى ارجاء الامبراطورية الاسلامية بمعاوية ، بعد أن شاع فيهم ان « عليا » كان ضالعا فى قتل « عثمان بن عفان » رضوان الله عليه ، وانه ليس ادل على ذلك من احتضان على لقتلته وضمهم الى صفوف جيشه الذى سار به الى قتال معاوية فى ارض الجزيرة وفى بلاد الشام

ولئن اختلف المؤرخون فى حق على او معاوية بخلافة المسلمين بعد مقتل ذى النورين ، فقد اجتمعت كلمتهم وكلمة المسلمين على أن معاوية كان يملك ما تؤهله لهذه الخلافة ، وان لم تربطه بالرسول وشائج القرابة أو المصاهرة

نعم كان معاوية اهلا لأن تتبوأ هذه المكانة الرفيعة ، خليفة للمسلمين ، مثلما كان على اهلا لها ، فهو سليل بيت عريق لأحد سادات قريش فى الجاهلية وفى الاسلام ، بيت عبد شمس الذى انتقل من سيادة فى الجاهلية الى سيادة فى الاسلام

كما كان معاويه مقربا الى الرسول صلوات الله عليه بعد اسلامه ، وكان يتولى الكتابه بين يديه ، ولما ان قبض الرسول وتولى الخلافة ابو بكر ، ولاه قيادة الجيوش مددا لأخيه يزيد بن أبي سفيان ، فأهلته شجاعته وجرأته وحسن تدبيره لفتح ثغور الشام وبسط كلمة الاسلام في ربوعها البعيـدة والقريبة على السواء

وفي خلافة عمر بن الخطاب تولى اماره الاردن ، حتى اذا ما مات أخوه يزيد ، لم يجد عمر أصلح من معاوية ليمسك بزمام دمشق وماينتظمها من الولايات والأمصار

وحين تولى عثمان بن عفان خلافة المسلمين ، جمع لمعاوية ولايات الشام كلها ، فكان يختار بنفسه الولاة والأمراء والعمال دون الرجوع الى خليفـة المسلمين في مكة ، فقد كانت الثقة في مضاء بصيرته تنتقل اليه من خليفـة بعد خليفة

ذلك الماضي المضيء وهذا الحاضر الوضيء اللذان واكبا معاوية بن ابي سفيان منذ دخل في دين الله حتى واقعة صفين ، كانا خير ركيزه يتوكأ عليها يوم نودي بالتحكيم أي الرجلين يختـارون ابن أبي طالب او ابن أبي سفيـان ؟

وينقشع غيوم المتاعب في سماء معاوية ، ويصفو له الجو الى حين بعد مقتل علي بن أبي طالب رضوان الله عليه بضربة من سيف « ابن ملجم » في قريه ليلة الخامس عشر من رمضان لعام اربعين للهجرة مبكيـا عليه من آل البيت ومن يحبه في كافة أرجاء الامبراطورية الاسلامية الفتية

ويحل العام الحادي والاربعون للهجرة ويجتمع بحلوله بيعة اهل العراق والشام لمعاوية ويسميه المسلمون عام الجماعة لاتفـاق كلمتهم واجتماعهـا بعد فرقة هوجاء سالت من أجلهـا دماء غزيرة طاهرة خضبت أرض العراق والشام وغيرها من أمصار كان تؤذن في سمائها بذكر الله

وبهذا أنماس البيت الأموي بعد طول لهاب ، ويسكن حأس اول حليفة من دلك البيت العريق ، وتتحد من دمسق حاصرة للحلافة الاسلامية بديلا عن مكة المكرمة ، وبهم من أمامه ومن ورائه الصحاب والآدنون حتى لا تكون بهانته مثلما كانت بهاية عمر وعثمان وعلي رضوان الله ورحمته عليهم في الدنيا وفي يوم الحساب

وتبدأ السمات الوانية في تعرف طريقها الى وحوه بنى أمية ، ويبدأ أول حليفة أموي في قواعد دستوره وحكمه للمسلمين مستهديا بكتاب الله الذي أنزله على رسوله ، وبضياء ما سنه الحلفاء الراشدون ، يسانده في دلك كله ما درج عليه من آداب الاسلام وكياسته ، وما سهر عن حلمه وحسن سياسته

ولقد ظن معاوية أن حل متاعبه قد انقضت بمقتل علي، وان ما تحلف من آثار المعركة يمكن ان يزيله ويحرفه دون ما جهد أو مشقة لكن الظن قد حاب ، واذا به منذ اللحظة الأولى التى استلم فيها ازمة أمور المسلمين ، يستقبل رياحا عاتية هوجاء ترار بثار عثمان تارة، وتحار بدم علي تارة احرى، وتنادى بالحروح على هذا وذاك تارة ثالثة

ولو لم يكن معاوية يدحر من صلابة عزمه وقوة سكينته وسعة حلمه واناته ما يواجه به اعاصير الطالبيين وعواصف الحوارج ، لكان الاسلام قد تعرض لهزات يمكن ان تؤدى به وهو بعد لم يتجاوز طور الشباب

ويصمد معاوية صمود الأسداء لكل ريح تهب عليه من الداحل ومن الحارج ، فيرسل الحملات لردع بيعة علي بالعراق وقمع فتن الحوارج التى يثيرونها هنا وهناك، ولم يكن هناك من امر يقلق معاوية ويؤرق نومه سوى امر الحوارج الذين علوا في الدين وحملوه كثيرا على غير وجهه ، ويعرف بسبب دلك كلمة المسلمين ، وخشى على الدين الوليد أن تتزعزع اركانه وتتصدع بنيانه ويعود المسلمون القهقرى الى عصور الجهالة والظلمات

ويهيء الأقدار لمعاوية نفرا من الأشداء ذوى العزائم الماضية ، فيقفون الى جانبه ، ويشدون من أزره ، ويحملون معه على الخوارج والطالبين ويكسرون شوكتهم حتى اختار معاوية أشد فتره فى خلافته وهو لا ينفك يذكر الدور الكبير الذى لعبه كل من «زياد بن سمية» و «المغيرة بن شعبة» و « عبد الله بن زياد » مع ما اريق من دماء زكية فى كثير من الولايات والأمصار

لقد شدد « زياد » امر السلطان ، وأكد الملك لمعاوية ، وجرد سيفه ، وأخذ بالظنة ، وعاقب على الشبهة ، وخافه الناس خوفا شديدا حتى أمن بعضهم بعضا ، وحتى كان الشيء يسقط من يد الرجل أو المراة اثناء السير فى الطريق فلا يعرض له او يقربه احد حتى يعود اليه صاحبه فيجده مسلما كان

ولقد يعاب على معاوية بروعه الى الشده وعدم نفوره من البطش والقسوه ، اذ كان يقر رجاله وعماله عليها ، لكن العلف المنصف يلتمس للخليفه الجديد أكثر من سبب يدعوه الى ذلك السبيل فقد استقبل معاوية خلافته للمسلمين وهم على أهواء مختلفة وقلوب مساعدة غصت بالمرارة الثقيلة منذ مقتل ابن الخطاب ومن بعده عثمان ثم على بن أبى طالب ، حتى سهل على هذه القلوب أن تشق عصا الطاعة وان تستجيب لوساوس الفتن ونعاب التشكيك ، فكان لابد لهذه الشروخ فى صرح الاسلام السامح أن تراب وان تقوم المعوج منها قبل ان يستفحل الداء ويعز بعد ذلك الدواء

والصفة من المؤرخين قد سجلوا لمعاويه فضائل وحسنات جمة واخلاقيات تناقلها الناس فى خلافته وبعد وفاته ، كما تحدث بها ملوك الروم والفرنجة ، ولعل من أبرز فضائله ما اتصف به من حلم واسع وأناة حكيمه حسبه الكثير من المواقف النادرة سجلها له التاريخ ليورثها جيل يمضى لأجيال قادمة



وتمضى الأيام والسنون بمعاوية ، بعد ان حمل الصفة ، يسوس الناس بالرفق واللين والمصانعة حتى استقامت له الأمور واجتمعت عليه الكلمة ، والتفت الى الداخل يوليه فائق اهتمامه ، فانضبط سير الحراج، وتأمنت سبل القوافل فى طول البلاد وعرضها ، وأقام من اوفياء عماله من العرب الخلص حكاما وامراء على الولايات والأمصار ، وكان يبادر بعزل كل عامل تثبت عليه شبهة أو مظنة ، بعد أن يحاسبهم بالعدل والقسط دون ما التفات الى صلة قرابة أو وشيجة مصاهرة

ويطيب لمعاوية ان يسمر بين الحين والحين مع خلصائه ووجوه بنى امية فى قصر الخلافة فى دمشق ، ويجرى الحديث فى المجلس حول شئون الدين والدنيا وامور الملك ، ويسمع الخليفة الى رفيق القول وغليظه من كل ما يضمه المجلس الكبير ، ويمر « يزيد » ولده وولى عهده غيظا حين يشهد اباه يوسع فى صدره لهذا وذاك ويغض حياء بصره حين يغلظ اليه احد الشيوخ فى القول

وينتهى سمر الخليفة ذات ليلة ، ويأذن لسماره بالذهاب ، ويتهيأ للرقاد ، فتقابله ابنته « عاتكة » بعد ان ظلت تنتظر خروجه من المجلس لتحدثه فى امر يشغل بالها منذ أيام

ويحنو الأب على ابنته الأثيرة ويقبل جبينها ويربت على كتفها ويفتح لها قلبه الكبير ، فتطلب اليه « عاتكة » أن يأذن لها بالحج فى ذلك العام وزيارة قبر الرسول

وتضىء البسمة فى وجه الخليفة ويجيب دعوتها ، فيامر بأن يجهز جيش جهار ، كما يرصد لها ما يتصدق به على الفقراء من أعطيات تليق بمقام ابنة أمير المؤمنين

ويصل قافلة عاتكة وينبغها نبأها الى مكة ، ويلم الناس بها ليشهدوا حدمه الموكب ويؤملون الخير من صاحبته التى يتلألأ وجهها بالصفاء من خلف الستور

ىم ىصل سعراء مكه والمعون لىالوا حطهم من عطاء ابىة امير المؤمىں الىى ىصىح السمع الى ما ىلمى من العصائد والاناسىد ، وىحس عاىكة أىها ىحمعت من قيود ورصىب عليها هىاك ڡى دمسى حيىب ىىيم الحلىعــة ، وحىب العىون والاسماع ىترصد كل ما ىصدر عن دلك الىسب العريق

اتىست عاىكة حقا ىما سمعىب وما ســاهدىب من المواكىب العرحة الىى ىعيس ڡى ظلال حلافة رسىدة اساعت الأمان والرحاء والسعة ڡى كل سىوں الحيـــاة

كانت ىسوة عاىكة الىى سملىها وشملىب معها حواريها وحدمها ، مىل ىسوه طفل عرىر اىعلىب الى حىں من حكم مؤدبيه الى آڡاق رحىة ىرىع ڡىها وىلهو دون رهىة من حساىب او حسية من عماىب

حتى اقىل دلك الساعر يىىد ڡى مسىيه وىىحال ڡى هيئته

أراحىب عاىكه طرڡ السىر الدى ىحجىها عن رحام المواكىب الىى ىروح وىعدو ىالأهاريح والعىاء وىقر الدڡوڡ ، ڡأىصرت وحهــا وصىيا تتطلع الى هودحها ولا ىىدو عليــه سمات المتكىسىں ، اىما ىسع من وحهه حمال رصىں ىحدىب اليه القلوىب والأىصار ، وىروح ىطراىه وىعدو متمهلة عير مهمومة ، وادىعة عىر ملهوڡة تستطلع وحه عاىكة وتتامل قسماىه المىمىة وقد ىصرحىب ڡىه وحىتان وسىتا ىسمة حلوة سىرة اصاءت ڡى حاىسه عارىان آسرىان

احسىب عاىكة سىء ما ىدعدع قلىهــا الرهيڡ ، وسرع ڡىه ىىصــه اللهيڡ ، ىم عامت عيىاها لحظة ، وحىں أڡاڡىب ، أىصرت الساعر الوسىم ىدىر وحهه حتى لا ىلحظ ما اعتراه من رعىىة الحب الدى ىرل ڡى قلىــه وصيره مىل عود الرهر اصاىه الطل ڡوحڡ مىه القلىب وارىعد

احس الســـاعر أن سهما طاس من راميه ڡأصاىه ، ڡمد ىده الى قلىــه ىتسمع دڡاىه الىى ىراىدىب وامسك ىعصها ىىلاىيب ىعص ، ثم اســتدار ىحو

عاتكة فرآها قد أرخت الستر وتوارت خلفه ، فتقدم اليها ، فما راعه الا ان سمته وأومأت الى جواريها وخدمها بالرحيل الى وادى « ذى طوى » حيث هيئ لها مقام جليل نزلت به حتى تقضى ايام الحج

لم يدر الشاعر الصب أن عاتكة قد اصابها مثلما أصابه ولكنها غلبت على أمرها بعد أن رابت جواريها وخدمها بلحظها وهى تنظر اليه ، وخافت على نفسها أن تعود الى أبيها تسحب من ورائها شائعات بأنها أحبت واحـدا من الشعراء الذين تتبعهم الغاوون ، فكان أن اصطنعت غضبها أمام خدمها تشفى القلب بدمى من جراح السهام التى أطلقتها العيون

ولما أن تحركت قافلة عاتكة ، واختلط الحابل بالنابل ، عاد الشاعر الى مجلس نظرائه ، وظل ساهما لا ينبس ببنت شفة ، وفى النهاية انطلق لسـانه على غرة تترنم بصوت رخيم

ابى دعانى الحين فاقتـادنى	حتى رأيت الظبى بالبـاب
يا حسنه اذ سبنى مدبرا	مستترا عنى بجلبـاب
سبحان من وقفها حسرة	صب على القلب بأوصاب
يذود عنها ان تطلبتهـا	اب لهـا ليس بوهاب
أحلها قصرا منيع الذرى	يحمى بأبواب وحجـاب

وشاعت الأبيات فى عاتكة بمكة وشهرت وذاعت وانتقلت من لسـان الى لسـان ، ونمق فى فيها المغنون حتى سمعتها انشـادا وغناء فضحكت وأعجبتها الأبيات العذبة ، والغوانى تعرض النساء وترف قلوبهن الغنـاء ، فبعثت تسأل عن الشاعر فاخبرت بأنه « أبو دهبل الجمحى » فطامن جأشها وسكن خاطرها ، فهو ذلك الشاعر الذى مدح من قبل اباها فى قصائد رائعة اهتز لها وجدان الخليفة ، فأمر له براتب كريم يقبضه فى كل عام

وانقضت أيام عاتكة فى مكة وفى المدينة ، وما كانت تود الأوبة الى دمشق والى جدران القصر الذى يموج بالخدم والجوارى والوصائف حيث تستمع دقات القلوب وتعدون الأنفاس والزفرات ويتقلون كل ما ينطق به الوشاة الى هنا والى هناك

لكم ودت ابنة الخليفة ان تظل فى مكة لتدنو مع بسطاء الناس ولتعيش مثلما يعيشون على هواهم ، ولتشهد كل ما يجرى بينهم على السجية حيث لا عين هنا ترقب ولا حافظة هناك ترصد همس الوشاة وتحوى القلوب

وفى يومها الأخير بمكة وبينما القافلة على اهبة الرحيل ، بعثت عاتكة الى « ابى دهبل » بكسوة وجائزة وبكلام يفهمه المحزون وان لم تفهمه الخدم والرسل

وجرت بينهما الرسل والرسائل تحمل نبضات القلوب ، وعاتكة من قبل ومن بعد واحدة من بنى الانسان الذين خلقهم الله وأودع فى قلوبهم الحب والاشتهاء لا فرق فى ذلك بين ابنة ثرى وفقير أو بنت امير وحقير

غادرت القافلة أرض الحجاز وفى قلب عاتكة جوى يتأجج لهيبه كلما ذكرت « أبا دهبل » وتمنت فى اعماقهـا لو لم تكن ابنة امير المؤمنين حتى تكون خالصـة من قيد الامارة الثقيل وما يفرضـه من مداراة هوى القلب وكتمان ما يضطرم بين الجوانح . نعم ، ودت عاتكة لو خلصت لهذا العاشق الذى احبها واحبته ، فيعيشـان تحت سقف واحد لا يزاحمهما رقيب يعـد عليهما الحركات ويحصى السكنات وهمس الوشاة

وأبو دهبل ، لكم غالب خفق قلبه الذى استهام بحب عاتكة ، فهو يعلم أن ابعد نجم فى السماء ، انما هو ادنى واقرب اليه من نيلها زوجة ورفيقـة حيـاة

لم يستطع الشاعر العاشق أن يشهد عاتكة تفارق ارض الحجـاز دون ان تتملى من طلعتها ، فركب ناقته واحد يسير بها على مبعدة من قافلتها حتى

ادا حطب فى محله لتصيب حطا من الراحة ، حط العاسق قريبا من حامها يرقب عدوها ورواحها ريما يسأنف الركب المسر

ويهب سماب رطبة فيسو من عبيرها روائح المسك والكافور التى تطيبت بها عاتكة ، وبعيم عساه ، ويرتعد فؤاده ، ويوسك ان يروح فى اعماءه طويله

ولم تحرع عاتكة من مصاحبة «أبى دهبل» لعاقلها بعد ان هون الحب عليها ما يراه عيرها دسا أو بقيصة ، وكاب يعاهده بالبر واللطف حتى وردب دمسق فدحلها معها وانقطعت عن لقائه ، وبعد من أن يراها بعد ان عيبتها عن باطريه حدران القصر المهيب وما يقف على ابوابه من الحراس والحجاب

استبدب اللوعة بأبى دهبل ، فـكان يحرج فى الليل يحوس فى طرقاب دمسق حتى يقوده قدماه الى قصر الخليفة ، فيأخذ فى الطواف من حوله لعله يلمح سيحها او يلقى احدى وصائفها فيحملها بعض ما يحمل قلبه المفتون ، حتى اذا يئس من لقائها وعاد الى حيث يقيم داوى النفس محزونا فألم به المرض واحد يهذى فى نومه ويقظته

طـال ليلى وبت كالمحزون	ومللت الثواء فى جيرون (١)
واطلب المقام بالشام حتى	ظن اهلى مرجمات الظنون
فبكت خشية التفرق جمل	كبكاء القرين اثر القرين
وهى زهراء مثل لؤلؤة الغوا	ص ميزت من جوهر مكنون
واذا ما نسبتها لم تجدها	فى سناء من المكارم دون
ثم خاصرتها الى القبة الخضر	اء تمشى فى مرمر مسنون
قبة من مراجل ضربوها	عند برد الشتاء فى قيطون
عن يسارى اذا دخلت من البا	ب وان كنت خارجا عن يمينى
ولقد قلت اذ تطاول سقمى	وتقلبت ليلتى فى فنون
ليت شعرى امن هوى طار نومى	ام برانى البارى قصير الجفون

(١) مكان خارج دمشق

ساع هذا السعر ى دمسو ، وسافله الناس ى محالسهم وسمرهم حى بلع معاوية فصىر عليه ، وكان قد بلعه حبره مع عاتكة ، حتى ادا كان ى يوم الحمعة الذى سستقبل فيه الوفود والسعراء ، دحل عليه الناس وفيهم « أبو دهبل » فمال الخليفة لحاحبه ادا اراد أبو دهبل الحروح فامنعه وارىدده الى

وحعل الناس سلمون وىصرفون ، وقام أبو دهبل ليىصرف ، فناداه معاوية يا أبا دهبل الى فلما دنا اليه أحلسه حتى حلا به ثم قال له ماظنىت أن ى قريش أشعر منك حيث تقول

ولقد قلت اد تطاول سقمى | وتقلىت ليلتى ى فنون
ليت شعرى امن هوى طار نومى | أم برانى البارى قصير الحفون

غير أنك قلت

وهى زهراء مثل لؤلؤة الغوا | ص ميزت من حوهر مكنون
وادا ما نسبتها لم تجدها | ى سناء من المكارم دون

ووالله ان فتاه أبوها معاوية وحدها أبو سفيان وحدتها هند بنت عتبة لكما دكرت ، فأى سىء زدت ى قدرها ؟ عمر أنك اسأت ى قولك

ثم حاصرتها الى القبة الخضرا | ء تمشى ى مرمر مسنون

ارتاع « أبو دهبل » لحظة ثم قال والله يا أمير المؤمنين ماقلت هذا ، وانما قيل على لسانى ولصق بى أنى قلته وامير المؤمنين يعلم رفعة قدره وعظم منزلته ى قلبى الشاكر لفضله الداكر لمنه أبدا

عندئذ أحد معاوية يتفرس ى وجه أبى دهبل الذى صرحته حمرة الخحل فطأطأ راسه حتى السر يكسو قسمات وجه الخليفة الذى قال

ـ أما من جهتى فلا خوف عليك أبا دهبل ، لأنى أعلم صيانة ابنتى لنفسها ، وأعرف ان فتيان السعر لم يتركوا قول النسيب ى كل من حاز أن

تقولوه فيه وكل من لم تحر ، وانما أكره لك حوار « برند » وأخاف عليك وسانه ، فان له سوره السباب وانفة الملوك

ولم تجد « ابو دهبل » ما يرد به على حلم الخليفة ، فرفع اليه وجهه ، فرأى معاوية دموع الشاعر تساب من عينيــه ، فكانت أبلغ من اى كلام ساغها ادار الخليفة وجهه حتى لا يرى عراب الشاعر ، واســار الى خادمه ليقترب ، فاسر فى اذنه كلاما جرى على أثرها ثم عاد يحمل كيسا محتوما دفع به الى أبى دهبل ثم صحبه حتى غادر آخر أبواب القصر

نعم كان معاوية محبا لأبى دهبل الساعر الذى تغنى بقصائله دون أن يلقاه ، فقد كان الخليفة يتحدث من السام مقــاما له منذ خلافة أبى بكر حتى بويع له بالخلافة ، وكان معاوية يحس بان هناك سعاعا فى قلبه يربط بينــه وبين دلك الساعر العف الذى مدحه بقصائد سائمة رائعة ســاعت فى ارض الحجاز وتناقلها الرواه والركبان ، وتغنى بها المغنون حتى بات ذكر معــاوية يجرى على كل لسان فى الأطراف القريبه والبعيده على السواء

والحق أن معاوية اراد بهذا اللقاء الكريم بينه وبين ساعره الذى شبب بابنته ، أن يهرب أبو دهبل ، فيقضى المقــالة عن ابنته ، ويامن جانب ولده يزيد ، ولم يكن أهون على امير المؤمنين من ان يطيح بعنقــه جراء ما صدر عنه فى حق ابنته، وها هو ذا سعره قد ذاع وانتشر الأمر الذى يستوجب القصاص أغلظ قصاص

والحق أن حلم معاوية فى هذا المقام ، كان ابلغ من محبته لأبى دهبل، فقد تتغير المحب على من يحبه وتحول بينهما الوشائج الى ساحة من النــار والبغضاء ، لكن الحلم الجميل عسير على صاحبه ان يزايله ، انما يظل كامنا فى القلب كالجوهر الأصيل يسع بالجود والعطاء والصفح الجميل

غادر ابو دهبل دمشق وأرض السام يجرجر من ورائه اذيال خيبته من أمير المؤمنين الذى قابل الاساءه بالاحســان ، واقال كبوه الســاعر وأخذ

سـدنه ، لكنه فى حانا صلوعه لم سس عاتكة ، ولم نعفل فلسه عن الحمق نحبها ، وكذلك « عاتكه » انه معاوية حلىفة المسلمن وامير المومىن لم سس أبا دهىل ولم سرح حيالها وحهه الصبيح مند نطر اليها فىل ان برحى الستر هنالـ فى مكة

عاد « ابو دهىل » الى مكه حسدا بلا روح ، وحسما بلا فلب لفـد برلـ الروح والفلب هــالـ فى دمسو ، فى دلك القصر الذى علت أسـواره فححت الأحساد دون الفلوب ، وسـامحب حدرانه فمنعب الأبدان دون ارواحها الهائمة

لم نقـدر ابو دهىل ان نحول بىن روحه وروح عاتكة ، ولم نقو على واد شعفه نقلبها الغص ، فاحد نكاتبها ونكاتبه ، وحرب الرسل بىنه فى مكه ربىنها فى دمسق ، واحدب نعىل فى رفص حطابها من آكابر الست الأموى على أمل هو اوهى من حنوط العنكبوب

وبينما الخليفة فى حـاحه بالقصر داب صباح بعد ان حلا الى نفسـه لسرحع معها سنون الملك والحلافة ، دحل اليه حادمه نقول يا أمير المؤمنين ، والله لقد سقط الى عاتكة اليوم كتاب ، فلما قراته نكب ثم أحدته فوضعته تحت مصـلاها ، وما زالت حائرة النفس منذ اليوم

قال الحليفة لحادمه اذهب فالطف لهذا الكتاب حتى تأتيني به فانطلق الحادم ، فلم يزل يلطف حتى اصاب منها غرة فأخذ الـكتاب واقبل به الى الخليفة فاذا فيه

اعاتك هلا اذ نحلت فلا ترى لذى صبوة زلفى لديك ولا حقا
رددت فؤادا قد تولى به الهوى وسكنت عينا لا تمل و لا ترقا
ولكن خلعت القلب بالوعد والمنى ولم اربوما منك حودا ولا صدقا
أتنسين اىامى بربعك مدنفـا صريعا بارض الشام داسقم ملقى
ولىس صـدىق يرتضى لوصية وادعو لدائى بالشراب فما اسقى

يواكبر همى ان أرى لك مرسلا فطول نهارى جالس ارقب الطرفا
فواكبدى ادليس لى منك مجلس فأسكو الذى بى من هوا لـ وما القى
راسك برداد للصب علطـة ويرداد قلبى كل يوم لكم عسقا

اصطرب قلب معاوية وبعىر وجهه وأحس بالعصب يبور فى أعمـاقه ، يوويل للجانى من الحليم اذا غضب قال معاوية لخادمه وهو ينظر فى ابيات أبى دهبل ادع لى ولى عهدى يزيد

دخل يزيد على ابيه فوجده حزينا مطرقا فقال يا امير المؤمنين ، ماهذا الأمر الذى شجاك ؟ قال معاوية امر امرضنى واقلقنى منذ اليوم وما ادرى ما أعمل فى شأنه قال يزيد وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال معاوية وهو يغالب ثورته هذا الفاسق ابو دهبل كتب بهذه الأبيات الى أختك عاتكة فلم تزل باكية منذ اليوم ، وقد افسدها فما ترى فيه ؟

وكانما كان معاوية يتحسس فى ولى عهده مقدار مواجهته لما قد يعرض له فى خلافته المقبلة من مواقف ، وكانما كان يعلم فى يزيد حمقا يزل فيه قدمه ، وهو بعد فى ثورة الشباب وأبهة الملك

قال يزيد على ظن بأنه سيرضى أباه والله ان الراى لهين قال معاوية وماهو؟ اجاب يزيد عبد من عبيدك يكمن له فى ازقة مكة فيريحنا منه قال معاوية اف لك ! والله ان امرا يريد بك مايريد ويسمو بك الى ماسمو لعير ذى رأى ، وانت قد ضاق ذرعك بكلمة وقصر فيها باعك حتى اردت ان تقتل رجلا من قريش ! او ما تعلم انك اذا فعلت ذلك صدقت قوله وجعلتنا أحدوثة أبدا !

قال يزيد والخجل يأخذ بتلابيبه يا امير المؤمنين ، انه قال قصيـدة أخرى تناشدها اهل مكة وسـارت حتى بلغتنى واوجعتنى وحملتنى على ما أسرت به فيه قال معاوية وما هى قصيدته التى اوجعتك ؟ قال يزيد أما سمعت يا أبى قوله فى اختى عاتكة

ألا لا تمل مهلا فقد ذهب المهل | وما كل من يلحى محبا له عقل
لقد كان في حولين حالا ولم ازر | هواي وان خوفت عن حبها شغل
حمى الملك الجبار عني لقاءها | فمن دونها تخشى المتالف والقتل
فلا خير في حب يخاف وباله | ولا في حبيب لا يكون له وصل
فوا كبدي اني شهرت بحبها | ولم يك فيما بيننا ساعة بذل
ويا عجبا اني أكاتم حبها | وقد شاع حتى قطعت دونه السبل

ابتسم معاوية في ارتياح لما أن سمع أبيات أبي دهبل من ولده يزيد ثم قال قد والله رفهت عني ، فما كنت آمن انه قد وصل اليها ، فأما الآن وهو يشكو أنه لم يكن بينهما وصل ولا بذل فالخطب فيه يسير قم عني وأغرب عن وجهي فقد نبا بك فوسك وطاش سهمك

قام يزيد وانصرف وهو يتميز غيظا وحنقا اذ يرى أباه يحلم بالناس ويوسع لهم في رحابة صدره ويأخذ الأمور بالرفق الذي يطمعهم في النيل منه ثم لا يرضى في النهاية أن يحاسبهم ويوقع بهم ما يستحقون من جزاء

ولقد أدرك معاوية بعد انصراف ولده انه لابد صانع امرا يودي بأبي دهبل ويقطع مقالته الى غير عودة

كان يعلم انفة ولده وضيق صدره بما يقوله الناس وان لاشيء عنده أقرب اليه من سيفه وان لا كلمة اسرع على لسانه من كلمة القتل نعم لقد اعتزم يزيد امرا واعتزم معاوية أمرا آخرا

وراودت معاوية في تلك الليلة احلام ارعبته رأى شبح ابي دهبل يروح ويجيء دامع العين واجف القلب كأنما يستنجد بحلمه ليرفع عنه ما يعانيه وما يضطرم في فؤاده المحزون

وصحا الخليفة قبل أن يطلع الفجر واخذ يتمتم بأدعيته ، ثم اتاه صوت المؤذن ، فقام واغتسل ، وأسبغ وضوءه ، وصف محرابه ، وصلى الفجر ، وأرسل يدعو اليه قيم القصر

وضجت سكان قصر الخليفة في الصباح على هرج في الأنحاء والغرف ، فتساءلوا عن الضجة ، وجاءهم نبأها أن الخليفة قد عزم على أداء الحج في ذلك العام

حج « معاوية » في تلك السنة ، ولما انقضت أيام الحج ، كتب أسماء وجوه قريش وأشرافهم وشعرائهم ، وكتب فيهم اسم « ابى دهبل » ثم دعا بهم ففرق في جميعهم صلات سنية واجازهم جوائز كثيرة فلما قبض « أبو دهبل » جائزته وقام لينصرف ، دعا به معاوية فرجع اليه ، فقال له

ـ مالي رأيت أبا خالد يزيد بن امير المؤمنين عليك ساخطا في قوارص تأتيه عنك ، وشعر لا تزال تنطق به وأنفذته الى خصمائنا وموالينا ، لا تعرض لأبي خالد

جعل « ابو دهبل » يعتذر الى الخليفة ويحلف له انه مكذوب عليه رفد دسه الواشون لينالوا من مكانته عند أمير المؤمنين قال معاوية لابأس عليك وما تضرك ذلك عندنا خبرني هل تزوجت أبا دهبل ؟ أجاب أبودهبل منهورا لا يا أمير المؤمنين قال معاوية فاى بنات عمك احب اليك ؟ قال انها سلمى يا أمير المؤمنين قال معاوية قد زوجتك اياها واصدقتها ألفى دينار وامرت لك بألف دينار قال ابو دهبل وعبراته تسبق كلامه لن رأى مير المؤمنين أن يعفو لى عما مضى ! فان نطقت بيت في معنى ما سبق منى فقد ابحت دمي وابنة عمى التي زوجتنيها طالق البتة

ساغ السرور في وجه معاوية بعد أن سمع ما حكم به أبو دهبل على نفسه لو عاد الى التشبيب بعاتكة ، وضمن له رضاء يزيد عنه ، ووعده بادرار ما وصله به في كل سنة ، فانصرف أبو دهبل ، وتجهز الخليفة للعودة الى دمشق

وحطت قافلة الخليفة لتصيب حظا من الراحة في منتصف الطريق ، وانعقد مجلس السمر في امسية وضيئة ، فرش القمر نوره في ثناياها ، وامتد

السماط والحدث السائر بين امير المؤمنين وضيوفه ثم بدا لواحد منهم أن يسأله

ـ ترى يا امير المؤمنين لو سألك سائل عما بينك وبين الناس من صلة فماذا يكون الجواب اعزك الله وجملك ؟

ابتسم معاوية فى وجه سائله لما أدرك ما يرمى اليه ثم قال

ـ والله يا اخى انى لأتصور أن بينى وبين الناس شعرة اذا هم شدوها أرخيتها ، واذا أرخوها شددتها وانى لأحرص ان أراها ولو لا يراها أحد

وسرت فى المجلس همهمه خافتة ان الخليفة لم يضحك فى تلك السنة الا من أجل ابى دهبل



لقاء ذات ليلة

بدأت دولة الأمويين بلفظ آخر انفاسها المتعبة ، وأخذت شمس خلافتهم تؤذن بالمغيب منذ خلافة «يزيدالثالث» ومن بعده «مروان الثانى» آخر خلفاء بنى امية وكانت خلافتهما تضطـرب بالفتن وتمـوج بالتوحش من مستقبل تحس المسلمون بدسه تحت الخطى نحو تغيير كبير

والقلق من حاضر مضطرب برعد ، والتوحش من مستقبل يلوح فى افق الحيـــاه ، كلاهما سمة من سمات النهـــاية ، وينذر بأفول نجم يتهاوى وسير بطلوع فجر جديد

كذلك كان حال المسلمين فى خلافة « مروان الثانى » الخليفة الأموى الثالث عشر والأخير التى انتهت بمقتله فى أواخر العام الثانى والثلاثين بعد المائة الأولى للهجرة ايام دولة بنى امية ، وبدأت شمس جديدة تسطع فى الأفق لتواكب الميلاد الجديد لدولة فتية دولة بنى العباس

ومنذ اللحظة الأولى التى استشعر فيها « بنو العباس » دبيب الضعف فى صفوف الامويين وهم يلمحون ظلهم ينحسر رويدا يوما بعد يوم مـــنذرا بزوال ايامهم ، أخـــذوا يجمعون صفوفهم ، ويوحـــدون رايهم ، ويرسمون خططهم ، ويستعدون لليوم الكبير الذى تؤول فيه اليهم زمام خلافة المسلمين

فى الكوفة بارض العراق ، كان همس يدور على السفاه ثم يتطاير الى الاسماع ، عن دعوة بنى العباس وحقهم فى خلافة المسلمين

وهناك فى خراسان ، كان « ابو مسلم » صاحب دعوتهم ، يبذل جهده لتهيىء القلوب لتلقى هذه الدعوة والانقضاض على حكم نخر فيه السوس ويوشك ان تتهاوى اسلاء بذروه صفحات التاريخ

ولم تكن الامويون فى الحقيقة فى غفلة عن ذلك الهمس الذى يدور فى الكوفة ولا عن التدبير الخفى الذى يجرى فى خراسان ، لكنهم كانوا اضعف من ان يجابهوا الهمس بالعمل الصالح ، أو ان يصدوا الدبس ربوب الذى بدا يتمزق ، كان اقصى جهد للأمويين فى تلك الفترة الحرجة فزعا يؤرق نومهم ، وتوجسا يحيل النهار فى ابصارهم ليلا واظلاما

كل ما استطاعه « يزيد الناقص » وأعوانه ، هو بث العيون والآذان على كل دار ، ودس الأنوف فى مجالس العامة والخاصة يتسممون رائحةالسكوك والريب ، ثم يرجون فى الحبس بكل من يتوجسون منه أو يحسون بأنه ضالع فيما يدبر بليل

منذ انس « بنو العباس » ان الخلافة صائرة يوما الى بيتهم احد كبيرهم فبل صغيرهم يتزود الى جانب حذقه لفنون القتال والحرب ، بسلاح من نوع جديد سلاح ذو حدين من الثقافة والمعرفة ، فليس مثله سلاح يضيء دياجير الغفلة ، ويبدد ظلمات العقول والقلوب

وحلقات الدروس والتثقيف فى كل زمان ومكان لها المقام العزيز فى افهام الملوك والشعوب على السواء ، وعلماء الاسلام والمسلمون منذ ايام الرسول صلوات الله وسلامه عليه ما فتئوا يجلسون الى طلاب العلم والفقه والحديث ، ولا يألون جهدا فى اذكاء نور المعرفة فى الأذهان ليداع فى أقطار الأرض هاديا للبشر وعاصما لهم من شرور الجهالة والضلال

ومدينة « الكوفة » بارض العراق ، كان لها القدح المعلى فى تخريج الفقهاء والعلماء ، وهى بعد كعبة القصاد لطالبى العلم والتثقيف على مختلف هواياتهم ومقاصدهم ، وفيها العلماء الاكفاء فى كل فنون المعرفة حيث يعقدون

حلقات الدروس فى المدارس والدور ، وفى المساجد والقصور ، بعد أن وقف المسلمون على حضارات الدول التى دانت لحكمهم ، وعلى ما تذخر به مناصبهم من أمجاد عريضة

وقد اشتهرت حلقة « أزهر السمان » فى أيام الخليفة الأموى « يزيد الثالث » بأنها أكثر حلقات الكوفة قصادا من الأطراف البعيده والقريبه للامبراطورية الاسلامية ، فهو امام فى علمه ، بارع فى حديثه ، مشحون القلب والروح بالايمان القوى مسجود العقل والحافظة بكل ما وعاه الاسلام وقرآنه من فضائل واخلاقيات وآيات بينات

كان درس الليلة السادسة من شهر رجب لعام ١٢٦ للهجره يدور حول خلافة « أبى بكر الصديق » وحرب الرده التى صارت مفخرته الخاصة انفرد بها فى تاريخ الدعوه الاسلامية بغير شريك

وسار حديث « أزهر » مثلما تتناثر اللؤلؤ فوق بساط من المخمل ، وامتد وقت الدرس الى ما بعد الغروب ، فلا الشيخ العالم كف عن حديثه ودرسه ، ولا بارح الحلقة احد من طلاب علمه ، واصبح الدرس فى تلك الليلة متعة ذهبية للامام ولتلاميذه على السواء

وزحفت ظلمة الليل على المدينة والشيخ مازال يحاضر تلاميذه ويجادلهم ويستقرىء افكارهم ، وفجأة اقتحم اسماعهم صوت طرقات على باب الدار ، فبعث الشيخ بولده ليرى من يقصده فى هذه الساعة

وعاد ابن الشيخ الى حلقة الدرس يصحب تلميذا جديدا يلتمس موافقة الشيخ على ضمه الى حلقته ، فوافق من فوره حتى لا يقطع حبل الحديث عن « الصديق » ومكرمات صحابة الرسول

ثم آن لحلقة الدرس ان ينفرط عقدها النضيد ليئوب كل الى داره قبل ان يوغل الليل ، فأخذ تلاميذ الشيخ يسلمون عليه وينصرفون زرافات اثر آخر ولم يبق فى النهاية غير ازهر الفقيه وولده ، وطالب العلم الجديد

واسحى السح أن سه الساب الصامر الى مارحة داره ، فأحد نتمرس ى هئتــه ، فرآه حسن اليات وبتعل حصـا مما يتعله سراة القوم ، وبدت لحيه السوداء مسدبة كأن موسى الحلاق فارقها مىد لحطة

تعحب السيح ىيه وس نفســه وهو ىلحظ آثار النعمة تكسو ملامح الساب وهيئته ، وعهده بطلاب العلم والعلماء ى سطف من العس ، وللفقر والمسعىه معهم صلاب ووسائح !

وطال صمب ىقيل سمل قاعه الدرس لم تكن يقطعه عىرهرولة اس السح ليحمع الأوراق المىعىرة هنا والكتب الملماه هىاك عير عابىء بما ىدور س ابه وس ىلميده الحدىد

وسق السيح حجاب الصمب ىىه وىس القادم الحدىد فسأله من اىن باقى ؟ قال الساب متىدا من هىا من الكوفه وقـد قصدت تحصيل العــلم على ىدىك أردف السح قائلا أهلا ىك وسرف قصــدك ىافتى العرب ترى من ارسدك الى ؟ احاب الساب وعلى سفىه سىمة سيرة وهل هىالـ من حاجة لأن برسدنى احد اليك ىعد ان داع صىىك وساع دكرك ؟ قال السيح سأل الله حسن العاقىة والدكر الحميــل لأى قوم ىتىسب يا أحا العرب ؟

وكأن الساب الدكى كان ىبوقع هدا السؤال فقال للسح دون تردد اىى وقومى ىىتسب الى ىب الرسول عليــه السلام واقيم ىالــكوفة وقد قصدىك طالبا الاستزاده من علم الحدىث وآثار السلف الصــالح ى حلقىك المبــاركة

وعاود السح سؤاله ىعد ان ىهرىه اىاقه الحوار حبا وكرامة ىافتى ، عىر اىى ألحظ علىك سىمات الأثرىاء ممن لا ىاىون الى حلقتى ، فلعلك جاد فى الاستماع وصاحب حلد على الحفظ قال الساب ىعد ان طن أن أسىله السح سىقف عىد هدا الحد ستجدنى ان ساء الله من خىره الحفاظ واعىـا لكل ما ىقول

واستأنف السيخ حملقه فى هيبه الساب وهو يحـاول ان ينفذ الى ما وراءها ادن نكون قدومك الىا نعد صلاة العصر من كل نوم على دهن حاصر وقلب صاع ولكن حرنى من أى فرع من الدوحه النبوية العطرة ننتسب نافتى العرب ؟

وندأ الساب يتململ من وطء أسئلة السيخ المدققة، واحس نفل حصار اسئلته وان حاول أن نعلمها نكساء من البساطة وافتعال السذاجة ، فقـال للسيخ فى عصب كظيم انى من نب نبى هاشم ناسيدى ، وما من حاجة لأن نهف من أمرى على اكثر مما دكرت ، وقد حئتك طالب علم لا طالب مصاهرة!

وراق للسيخ الفقيه أن نسرها معركة دهنية بينه وبين السـاب ، فأخد نداعب لحيته التى خالط السيب سوادها ، ونصوب نظره الى وجه الساب ، ولم يلبث أن انتسم فى مكر مفضوح ثم قال لا عليك نا نبى مما سألتك عنه ما دمت صادقا نه ، انما احسب ان أحذرك من عيون نبى امية ، فلربما طولـ واحدا من العاسيين

وكاد الغضب ناخذ نمجامع الساب ، لكنه آثر أن نكتمه حتى يستشف مقـاصد الفقيه من هذه المحاورة ، ثم قال فى احتداد مكتوم ومادا نانسه نو العباس من ابم ناسيدى ؟ ألأنهم سعون ان يرفرف أعلام الاسلام خفاقة عالية نعد أن نكست على ند الأموىن ؟ أم لأنهم

وقطع فهمه السيخ العالمه حدنث الساب فسكت عن الكلام ، وأخد نحملق فى السيخ الذى اخد نمسح الدموع التى طفرت من عينه من سـده نهجته نوقوعه فى الفخ الذى نصبه له ، ولم يلبث ان قال للساب المغبط

— نهمت فهمت نا فتى العرب وكانت فراستى صـادقة فى كسـفـ حسبك انك عباسى وأقسم انك صـالح فيما ندبرون ولكن كيف بالله طاوعك قلبك على تعريض سيخ فى مثل سنى لبطش الخليفة الأموى لو علم رجاله وعسسه نك واحد من طلاب حلقتى ؟

وهنا يهيأ الشاب لمغادرة دار الفقيه ، فقام من مجلسه وانتصب الشيخ واقفـا بدوره دون أن يقول شيئا للشــاب الذى مد يده مودعا وهو يقول للشيخ

— اما وقد بلغ السوء بالأمويين ان يخرجوا على العــلم والعلمــاء ، ويصيروهم مطية لأهوائهم ، فلا مقام لى فى حلقة علم هى وقف على فئة دون فئة ، خلافا لما امر به دين الاسلام الحنيف أستودعك الله ياسيدى

مد الشيخ يده ، وأمسك بيد الشاب الرقيقة وابى ان يفلتهـا من يده الكسرة ، ثم اندفع يقول ويده ترتعش لا لا ورب الكعبة سافلك فى حلقتى ولو قطع الخليفة رأسى سأقبلك ولو كنت « ابا العباس » نفسه

واندفع الشاب بقهقه ملء قلبه ، وحاولت جدران القاعة اصداء قهقهته المدوية ، ثم قال للشيخ على غرة انى وابا العباس سفيان

ولم يقو الشيخ على كبت دهشته فصاح منفعلا اذن أنت «ابوجعفر عبد الله » قال الشاب على الفور نعم انا « ابو جعفر » العباسى يا ازهر ، قال الشيخ قــد شرفتنى وشرفت دارى وحلقتى اللهم انى اســالك ان تحشرنى فى ساحة رضائك وان تلحقنى بالصالحين من عبادك غدا بامر الله ومشيئته تكون حضورك الينا بعد صلاة العصر ، واذا سئلت من تكون ، فقل انك ابن شقيقة ازهر السمان وانك كنت تقيم فى البصرة

وقبل أن يكمل الشيخ وصيته للشاب ، اقتحم سمعهما صوت طرقات عنيفة على الباب تبعــه صوت واحد من شرطة الليل يقول افتح البــاب يا أزهر

نظر الشيخ الى الشاب العباسى كأنما يذكره بما اوصاه به واومأ اليه ان يعود الى جلسته الأولى وأن يلزم الصمت ، ولم يلبث ان قال بصوت عال سمعه الشرطى من الخارج تفضل مكرما الباب غير موصد

ودخل القاعة رجل الشرطة ، وأخذ يجيل بصره فيما حوله ثم سأل الفقيه عن ذلك الرجل القابع هناك يا أزهر ؟ قال الشيخ على الفور هذا أبو جعفر ابن شقيقتي قدم لتوه من البصرة لزيارتنا لهفى عليه دهمه النوم وهو جالس بعد عناء السفر قال الشرطي وهو يغادر القاعة احذر يا أزهر أن أضبط عندك عاصيا فيكون فى ذلك حتفك قال أزهر وهو يضاحك الشرطي ومتى علمت عنى أننى أهتم بهذا أو ذاك فأيهما الله ، ما أنا الا واحد من المحرومين الذين لا حظ منهم ولكن الا تبقى حتى تحضر طعام العشاء؟ وهنا ضج الشرطي بالضحك وهو يقول قبل أن يخطو الى خارج الدار اضحك الله يا أزهر ليتك تكفى نفسك وعيالك

انقضت شهور وسنون ظل خلالهما « أبو جعفر عبد الله » يحضر حلقة « أزهر السمان » دون أن يكشف أحد عن شخصيته المستورة ، وأحبه الفقيه حب الوالد لولده ، واحس أبو جعفر انه يرشف العلم منلما يرشف الصادى من ماء عذب زلال

ويوم طاف المنادون فى شوارع الكوفة يعلنون موت الخليفة « يزيد الناقص » وانعقاد البيعة لمروان الثانى ، نظر أزهر الى أبى جعفر وهو فى حلقة الدرس ، ونظر أبو جعفر الى شيخه وانتسم الانسان دون أن يلحظ أحد من الحلقة شيئا

وانقضت ايام « مروان الثانى » وكانت اياما عصيبة وثقيلة ظل المسلمون خلالها يرفعون أكف الضراعة بعد كل صلاة الى فاطر السموات والأرض ، لتعجل بانقضائها حتى شهدوا مولد الفجر الجديد الذين حلموا بطلوعه وشوقوا اليه

وبدأت نهاية الأمويين تقترب حثيثة ، وبويع « ابو العباس عبد الله » فى خراسان ، اول خليفة للمسلمين من بيت بنى العباس ، وحملت اجنحة الرياح نبأه الى الكوفة فى شهر ربيع الأول لعام ١٣٢ للهجرة ، ولم يبق الا الظفر بمروان الثانى هناك فى أرباض دمشق

وعاد «ابو جعفر» عن حلقة أزهر السمان ، فلم يعد الموقف يحتمل ابتعاده عن أخيه أمير المؤمنين الذى وفد الى الكوفة وارتضاها عاصمة للخلافة العباسية

وامسى الناس واصبحوا ذات يوم على نبأ عظيم ، لقد ظفر رجال ابى العباس بالخليفة الأموى الثالث عشر والأخير (مروان بن محمد ــ مروان الثانى) وانتهت بمقتله فى ارض مصر ، آخر أيام الامويين ، وانطوت صفحتهم بما حفلت من خير وشر ، وفضائل ونقائص

وافتقدت حلقة أزهر ذلك الشاب الهادىء الصامت ، ابن شقيقة الشيخ الفقيه الذى قدم ذات يوم من مدينة البصرة ، ويوم اعلن قدوم « ابى العباس عبد الله » الى الكوفة بدا الفقيه درسه بالآية الكريمة « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شىء قدير »

ولم تطل ايام « ابى العباس » أول خلفاء العباسيين بعد ان انهكته الحروب مع فلول الامويين ونزع الأشواك من الطريق لتعبده لمن سيخلفه من بعده ، وانتقل الى رحمة ربه بعد مرض لم يمهله الا قليلا ودفن بمدينة الأنبار

وبويع بالخلافة « لأبى جعفر عبد الله » شقيق ابى العباس فى شهر ذى الحجة من عام ١٣٦ للهجرة

ووقف « أزهر السمان » ذات يوم على باب امير المومنين « أبى جعفر المنصور » يجادل الحاجب ويرفض ان يقول له اسمه ، وفى النهاية صاح فى الحاجب قائلا

ــ بلغ امير المومنين ابن شقيق امه التى تعيش فى البصرة !!

وابتسم امير المؤمنين « ابو جعفر المنصور » بعد ان سمع ما نقله اليه حاجبه ثم قال

ــ ادخل الينا خالنا « ازهر السمان » وهيىء له فى مجلسنا اطيب مقام!

رجل طويل الجلوس

لم ىعم « عىد الملك ىں مروان » حامس حلفاء ىىى اميه ، ىىوم هادىء عمىق مىد ىولى حلافة المسلمىں ، ميلما ىعم ڡى ىلك الليلة مں العام السالب والسىعيں للهجره

وصل الرسول الدى ىعب ىه « الححاح ىں ىوسف الىمڡى » الى مسارف دمىىق ، وصوء الغروب الرمادى ىحرحر ادىاله روىدا مں ڡوق البيوب والمآدں والقىاب ، ڡىىدو للرائى مں ىعىد كانها الأشباح

وقىل ان ىدوب حىوط السىڡى ڡى طلمة المساء الراحڡة ، كاں رسول الححاح قد ىلع اول اىواب القصر المىيڡ الدى يقيم ڡيه حليفة المسلميں ولم ىلىب الحواد الكريم اں صهل ڡحاة ، ساعة اں حدب الرسول لحامه ڡى ڡوة ، واحد يصرب الأرص ىحوافره ، ىم ىصب لحطات فتحت ىعدها كوه صعىره ڡى صلىه الىاب السميك ، وأطل مں حلڡها وحه صارم القسماب سا ل راكب الحواد عں ىعىته ڡى هده الساعة

قال الرسول ڡى رهو كىير ىلع اميىر المؤمىىں اں رسولا مں قىل الححاح ڡى مكة ىسعى لىقاءه على الڡور اىى والله أحمل ىىىا ىىتطره على احر مں الحمر المىقد

وهىا لاىب ملامح الحارس راحد يىڡرس ڡى وحه الرسول ىم قال ڡى اىىهاح

— مرحىى ىالقادم مں مكة السمحة حىب الأهل والأىىاء ساىلع مولاى على الڡور ولىىق حىب اىب حتى اعود اليك

وغاب حارس الباب لحظات حسبها الرسول دهرا من طول ما عاناه من وعثاء السفر ومشقة المسير حتى تسلخ حذاءه وتضعضع جسده القوى ، وأصبح فى شوق الى فراش طرى ، ونوم لا يصحو منه حتى تعود اليه نفسه

وبينما هو يمنى نفسه بعطاء الخليفة الذى سيناله فى تلك الليلة الفريدة ، ويعدد فى خياله ما سيحمله من أسواق دمشق لزوجه وأبنائه وأهله ، فتح الباب على مصراعيه ، وأتاه صوت الحارس يدعوه الى الترجل عن جواده والدخول الى القصر ، بعد ان اذن الخليفة بلقائه على الفور

وصحبه احد خدام القصر ، وسار به فى ممرات طويلة يمشى على البسط تارة ، ثم يعتدل سائرا تارة اخرى ، بينما الأقدام تغوص فى البسط الممتدة وظلال الداخلين تتراقص على جدران منقوشة بألوان زاهية محلاة بزخارف تاخذ القلوب والأبصار

وهمس الخادم فى أذن الرسول أن يتئد فى دخوله على امير المؤمنين الذى يجلس هناك فى صدر المكان فوق جبة من القطيفة السوداء ومن حوله حيرة الجلساء وصفوة الخلصاء

قال « عبد الملك » حينما اقترب الرسول مرحبا برسول الحجاج وبأنبائه الطيبة

قال الرسول العمر الطويل والنصر الجليل لأمير المؤمنين ايده الله ورعاه قد أراد الله سامت ارادته ، أن يظفر « بعبد الله بن الزبير » وان يصلب فوق أسوار مكة ، وهذى رسالة الحجاج يا مولاى

وتهللت أسارير الخليفة وهو يتناول الرسالة ، وكادت فرحته تجعل ابن الزبير ان يصححه وهو يفض اختامها ، وأخذ يقرأ ما كتبه اليه الحجاج فى حصار مكة الذى امتد الى اربعين يوما ضاقت فيها أنفاس الناس حتى

ضاقوا بحياتهم وباتوا يرجون موت ابن الزبير خلاصا لهم من مشـقة ما يعانون

وجزع عبد الملك حين قرأ ما أقدم عليه الحجاج من ضرب البلد الأمين بالمجانيق وكرات النفط والزيت المشتعل حتى استسلم ابن الزبير ، فضربت عنقه وعلقت جثته فوق اسوار مكة لتنهشها الطيور وجوارح النسور

ومسح الخليفة دمعة كبيرة انسابت من عينيه حين ذكر خـلافة ابن الزبير التى امتدت فى ارض الحجاز تسع سـنوات انتهت بمقتله على يـد الحجاج الذى لعنه المسلمون منذ بدأ يحاصر مكة ، سفاح بنى امية

فى تلك الليلة راودت عبد الملك فى نومه الهنىء أحلام كثيرة عن ايامه المقبلة ، راى من وراء استارها السميكة انه خلص من نقمة معاوية مثلما خلص من « ابن الزبير » وفى الصباح دعا برسول الحجاج ليـنال عطاءه ، وليحمل معه رسالة أمير المؤمنين الى واليه على امارتى مكة والمدينة

وظلت احلام « عبد الملك » تراوده فى نومه وتداعبـه فى يقظتـه وتبشره بان أمور الخلافة والمسلمين قد استقامت وانقادت اليه أزمتهـا ، ثم لا تلبث الأنباء السيئة أن تأتيه وتؤرق نومه من جديد

فى ارض العراق والجزيرة ، كانت رحى المعارك دائرة على اشدها بين جيوش الخليفة وقوات « زفر بن الحارث» الخارجى، وسليمان بن صرد كبير الشيعة ، والمختار الثقفى رجل الفتنة الـكبرى الذى اوشكت دعوته الخبيثة أن تنفذ الى قلوب المسلمين ، فيرتدوا عن دين الاسلام ، خير دين انزل للناس

وفى ولايات فارس ، لا تألو دهاقنـة المجوس وعباد النـار جهدا فى تحريك الجمر من تحت الرماد ليعـود الفرس العبقرى الى دينهم الأول دين الاكاسرة وحضارة العجم ، ومن ثم ينقضون على عمال الخليفة يطردونهم ويقتلونهم ، او يكتفون من المناوءة بالعصيان عن دفع الجزية للمسلمين

وهناك في بلاد السند ، سبق ملوكها وامراؤها عصا الطاعة وبطيحون باتفاقياتهم التي قطعوها على أنفسهم ، ويتسترون على ما تقترفه قراصنة بحارهم حين ينقضون على قوافل المسلمين وسفنهم في بحر الظلمات ويسلبون الاموال والأرواح ويسبون النساء والأطفال

ادرك عبد الملك ان ما لحقه من مناوئه « عبد الله بن الزبير » يتضاءل الى جانب تلك الهزات العنيفة التي تصدع بنيان الاسلام السامح ، بسبب ما يجري في العراق وارض الجزيرة تارة ، او في فارس وبلاد السند تارة اخرى

وسأل عبد الملك نفسه ترى هل أقفرت جعبة المسلمين من أشداء الرجال الذين يضيفون للاسلام عظمته وهيبته مثلما توفر له ايام الدعوة الأولى وفتوحاتها الرائعة ؟

ويجيب عبد الملك على تساؤله لنفسه لا ان الاسلام لم يزل سامحا عملاقا ويجب في كل يوم ولحظة رجالا يفدون غيره عليه ويذودون بالروح عن حياضه هاهو ذا « الحجاج » سيف الأمويين المسلول قد أعانه الله حتى نجح في ان يزيل من طريقهم مناوئا صلبا عنيدا دامت خلافته في ارض الحجاز تسع سنوات طويلة اوشك الناس خلالها أن ينسوا ان الخليفة الشرعي ، هو ذلك الأموي الذي يقيم في دمشق

« الحجاج بن يوسف الثقفي » ماذا لو ندبه لامارتي فارس والعراق، واسندت اليه اخماد فتنهما وتأديب المارقين والمفسدين فيهما ، حتى يسعد الاسلام نفسه وتعيش الناس في امان ؟

وقبل أن تعبث « عبد الملك » في هواجس يأسه ، بعث الى «الحجاج» يعفيه من امارتي مكة والمدينة ، ويوليه امارتي فارس والعراق فبل ان يستفحل الداء وتتعذر فيهما اصلاح الحال

وقدم « الحجاج بن يوسف الثقفى » من مكة ، ودخل مدينة «الكوفة» قبل المغرب ذات يوم من عام ٧٥ للهجرة وفى رفقته اثنا عشر رجلا من خلصائه ، واتجه فور وصوله الى المسجد وصعد المنبر وهو ملثم بعمامة خز حمراء واجتمع عليه الناس وهو ساكت اطال السكوت ، ولما ضاق المسجد على سعته بالناس ، كشف اللثام عن وجهه ثم قال

انا ابن جــلا وطــلاع الثــنايا متى اضــع العــمامة تعرفــونى

واندفع الحجاج ينثر فى اسماع الناس وعيده ونشر بينهم تهديده وقرأ عليهم كتاب امير المؤمنين بتوليته ، وطلب اليهم اخلادهم الى الطاعة واتباع ما امر الله به او يكون السيف خير ما يردع العصاة والمارقين ، اعداء الله والدين

ثم غادر الحجاج مسجد الكوفة متجها الى دار الامارة ، بعد ان حملت الرياح كلماته الملتهبة الى الدور والاسواق والقصور والى كل بقعة فى المدينة الكبيرة

على ان الحجاج فى الحقيقة لم يكن راضيا كل الرضا بتكليف الخليفة له ان يضبط امور فارس والعراق ، وكان يود من اعماقه لو بقى هناك فى مكة ربما يهدا اثقاله الالهية ، ويندمل الجراحات التى خلفتها حرب « عبد الله بن الزبير » التى زرعت فى كل دار مناحة على قتيل ومأتما على شهيد

لكن النفس الكبيرة التى يحملها الحجاج ، لم تضق كل الضيق بهذه النعمة ، بل هى فى الحقيقة قد طابت بها مثلما تطيب كل نفس عالية طموحة بجلائل المهمات ، مع ما فى هذا الاختيار من تولى امارتين كبيرتين من مشقات جديدة يدخرها له ايامه المقبلة

وسمى الأنام والشهور بالحجاج « امير العراقين » وهو بالكوفة يضبط الأمور التى اختلت موازينها ، ويولى خلصاء عماله على امارات

العراق تارة أخرى ، وعلى امارات فارس تارة أخرى ، وبطارد فلول الفتنة في الأطراف البعيدة ، وفي خلال ذلك الجهد الكبير ، لم يكن ينام في الليل او يغفو بالنهار الا قليلا

اعباء الحكم ومسئولياته الكبيرة واعباؤه الثقيلة ، لا يرى الناس منها غير ظواهرها ، ومن ثم يحكم جهالهم على ما يرون من سطحها دون الغوص في الأعماق

وحين يقسو الحاكم يوما ليحقق الخير والأمان للمجموع ، تعمى البصائر عن حكمته ، ولا يرون الا قسوته

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

ويوم خرج الحجاج لقتال « شبيب » الخارجي الذي روع الآمنين في الكوفة واقتحم عليهم الدور والقصور والأسواق وحصد الآلاف من أرواح الرجال والنساء والأطفال ، ثم ظفر في النهاية وأراح الناس من شروره وآثامه ، قال الناس يومئذ الا ما أغلظ قلب الحجاج واشد بطشه انه والله سفاح لا تطيب نفسه الا باراقة الدماء !!

ثم جاء وقت امسى فيه الحجاج وأصبح مشغول القلب والخاطر بأمور الكوفة أكثر من شغله بما يجري في خراسان وفارس وبلاد السند ، بل وفي أرض الحجاز نفسها ، حتى أوشك ان يسدد أوقاته وأيامه في القضاء على المفاسد القريبة دون البعيدة

في الكوفة ، رأى الحجاج الناس يظلم بعضهم بعضا القوي منهم يدل بقوته على الضعفاء ، والثري منهم وقد جمع امواله من كسب حرام ، لا يستطيع الا أن يسوم الفقراء سوط عذاب ، ويرجو لو تميد الأرض فلا يبقى فوقها فقيرا او معوزا ، ولو كان بعد الله يقلب سلم كلمة الدرهم والدينار هي العليا بها يشترى الذمم وتتم صفقات الكسب الحرام، أو تتولى عامل حرب الضمير عملا ميزانه نقاء الضمير

على أن أبلغ ما كان يغلي الحجاج وينقض مضجعه ، هو انقسام الناس في العراق وغير العراق شيعا واحزابا وأهواء ، وكلهم يختزن لبعضهم بعضا احقادا سوداء ، ويضمر القلوب من الضغائن ما يزحزح رواسي الجبال ومن لم يكن منتميا لهذه الشيعة او تلك الحرب ، فقد هان شأنه ، وضاع حقه ، وبات كالريشة في مهب الرياح الهوجاء !

* * *

انعقد مجلس الحجاج في ليلة النصف من شعبان للعام السادس والسبعين للهجرة مثلما ينعقد في كل ليلة ، وكانت هواجس الحجاج تصطرع في نفسه وهو يغالبها دون أن يفصح ملامحه لصامتة عن شيء ظل صامتا عزوفا عن الكلام ساعة وبعض ساعة ، اطلق بعدها زفرة طويلة حارة ولم يلبث ان سأل أقرب جلسائه

— من يدلني على رجل يصلح كبيرا لشرطة الكوفة ؟

انقض السؤال على اسماع جلساء الحجاج كالصاعقة وكان مباغتا يحمل في طياته ما ينوء به امر العراقين في تلك الآونة من خلافة عبد الملك بن مروان

وصمت الرجال كانما لم يسمعوا سؤال الامير وكان صمتهم ابلغ من أي كلام في تلك اللحظة ، ثم تلاقت في النهاية أنظارهم على صفحة وجهه لعلها تستشف ما وراء السؤال المباغت من غموض وهواجس

على ان صمت الرجال قد طال في الحقيقة أكثر مما يطيق الحجاج ، فلم يلبث ان اطلق زفرة عاصفة احسوا بلهبها يلسع وجوههم ثم قال

— ثكلتكم أمهاتكم ترى طلبت اليكم ان تخرجوا الجبال من اماكنها او تقلبوا الأرض ظهرا لبطن ؟ اريد رجلا رجلا يصلح شرطيا أعهد اليه أمن المسلمين هنا في الكوفة

وبعد ان تلاقت نظرات من فى المجلس قال اقربهم

— اصلح الله الأمر وحمله بالصبر والعافية دخل والله فى طبا انك تنصد بلدا آخر عبر الكوفه حتى تقيم الأمر فوق ارضها ومن ثم تمتنع عليها عوائل المارقين

وهنا اطلق الحجاج ضحكة مدوية ارتجت لها جدران القاعه الفسيحة ثم اردف

— بل اريد شرطيا للكوفة يحمل عنى امورها حتى افرغ لما هو أمامى وورائى من عظائم الأمور ، ام تراكم حسبتم شئون المسلمين شاش تكلام تفرع هنا وتسار هناك ؟

ادرك الرجال اخيرا ما يرمى اليه الحجاج ، فتحركت فى اذهانهم دوافع الكلام ومسالك الأخذ والرد ، وتزاحمت فى عقولهم شتى الافكار التى توافق هواه وتحقق مرماه ، وما كان الحجاج آخذ بحب الانفراد برأيه ، بل كان يميل الى ان يسمع من هذا وذاك من جلسائه ، ليستقطر من عصاره افكارهم أكثرها نصحا واحزمها مرمى

قال اقرب الجلساء اى الرجال تريد ايها الأمير ؟

قال الحجاج اريد رجلا طويل الجلوس ، دائم العبوس ، لا يخون فى الحق على حقد وبغضاء ، ولا تقبل فى الباطل شفاعة قريب او صديق

ولم يلبث الرجل أن قال بعد لحظة تفكير يسيرة ادل عليك بعبد الرحمن بن عبد التميمى ، وليت الأمر بعث اليه قبل ان يعود الى مكة ، فما عهدناه الا طاهر الباطن والظاهر

وأمن كل من فى المجلس على هذا الراى واخذوا يسوقون الى الأمير ما يزكى التميمى ويؤهله لما يتوق اليه الحجاج ، فلم يلبث أن صفق لحاجبه وطلب اليه ان يبعث على الفور برسول يدعوه الى القدوم

وذهب الرسول من فوره الى دار الضيافة فأبلغه حارس الدار أن « عبد الرحمن بن عبيد التميمي » قد غادرها منذ قليل ليرحل مع القافلة المسافرة الى مكة

قال الرسول للحارس ويحك أيها الشقى ، ان مولاى يطلبه الساعة فكيف اعود اليه بدونه أى طريق سلكته القافلة ؟

قال حارس الضيافة لو حثثت جوادك لاستطعت ان تلحق بها على مشارف الكوفة

استدار الرسول بجواده الأسمر بعد ان لوى عنانه وغمز مهمازيه في اسفل بطنه ، فانطلق كالسهم ينهب شوارع الكوفة ويثير من ورائه غبارا كالسحب ، ولم تكن شمس النهار قد مالت بعد نحو المغيب ، حين أبصر على مرمى البصر ابل القافلة تجد في سيرها لتبلغ اول محلة تبيت فيها الليل حتى الصباح

وزعق الرسول باعلى صوته يطلب الى القافلة أن تتوقف ، وعندما سمع الدليل صوت الرسول ، رفع ذراعيه اشارة الى الراكبين بالوقوف ريثما تتكشف نية القادم من بعيد

ووصل الرسول الى حيث وقفت القافلة واخذ ينادي على عبد الرحمن التميمي ليبلغه رسالة امير العراقيين واقترب « عبد الرحمن » من الرسول وهو يقول في دهشة وماذا يريد مني الحجاج وقد ودعته في الصباح واذن لي في العودة الى الديار والولد ؟

واستطرد عبد الرحمن يقول معنفا وهذه القافلة تراها ستبقى هكذا في العراء ريثما القى الحجاج واعود اليها ثانية ؟ الا ما احمقه ؟

وطاف شبح ابتسامة على وجه الرسول قبل ان يقول لعبد الرحمن ليتك يا سيدي تعود بصحبتي ثانية الى الكوفة وتدع القافلة تواصل المسير

ولشد ما عجب عبدالرحمن من كلام رسول الحجاج وأحس أن وراء الأكمة ما وراءها ، ومن ثم تطير من هذه الدعوة الملاحة وقافلته توشك ان تغيب في بطن الظلام والصحراء

وحدثته نفسه وحدتها ترى هل اعانه احد عند الحجاج بما سببه وحط من قدره مثلما تناول الناس سيرة بعضهم بعضا بمقالة السوء والتهم الشنعاء ؟ هل بلغ الحجاج بهتانا وزورا أنه ضالع فيما تدبره الخوارج والشيعة والطالبيون وفلول أشياع ابن الزبير ؟

على ان عبد الرحمن لم يعجب في الحقيقة من هذه الهواجس التي داهمته وهو في طريق عودته الى الكوفة ، فقد كانت الأقاويل والتهم تتطاير مع الهواء في كل يوم وليلة ابان تلك الفترة الهوجاء من حكم بني امية ، ولم تكن أيسر من اتهام الرجل أي رجل بأنه يروج لشيعة ابن ابي طالب أو يدعو للخوارج ، أو يلحقه بأعوان المختار الثقفي ، فيزج به في الحبس ثم يطاح عنقه ويلقى بعد ذلك جثة للغربان وجوارح الطير

وتوارت هواجس عبدالرحمن لما وصل مع الرسول الى دار الامارة ، ودخل الى حيث يجلس الحجاج في نفس القاعة التي لقيه فيها مودعا في الصباح ، ورآه في حالة حسنة هدأت من روعه وطيبت خاطره المضطرب

وقام الحجاج يستقبل صديقه عبد الرحمن ويعانقه كأنما لم يره منذ دهر طويل ، ودعاه الى الجلوس بجانبه وهو يوسع له في حفاوة صادقة

وزاد العجب بعبد الرحمن وعاودته الهواجس من جديد ، غير ان الحجاج قطعها عليه حين بادره في ود ظهر صدقه للجالسين

— اي اخي ورفيق صباي عبد الرحمن ، تراك تخيب رجائي لو طلبت اليك ان تتولى شرطة الكوفة لتعود للمسلمين الأمان على ارواحهم واموالهم وقد أوشكت الأمور أن تصير فوضى لا ضابط لها ولا رادع ؟

لم يجب عبد الرحمن فقد فاجأه سؤال الحجاج على غرة ودون تمهيد ، وأخذ ذهنه يروح ويجيء في اضطراب كأنما مسته رعدة من الحمى فماله وسرطة الكوفة وهي ليست بموطنه ، ولم يأت اليها الا زائرا للحجاج بعد أن بدبه الخليفة أميرا للعراقين ؟ انه كان في طريق عودته الى مكة حيث اسرته وعياله وشؤون حياته التي ألفها دون متاعب أو شغل بشؤون الناس واساليب الحكم

ولما احس بطول صمته نظر فجأه في وجه الحجاج ثم قال

— لست لها يا حجاج ولست لي اختر رجلا غيري واعفني يغفر الله لي ولك

سكت الحجاج لحظة ثم قال في غضب كظيم

— اصلحك الله يا عبد الرحمن ورد اليك عقلك قد اوشكت والله أن تخيب رجائي في مروءتك ترى هل استعمل اعداء الدين لضبط امور المسلمين يا عبد الرحمن ، وانتم هنالك في الحجاز تنعمون بالنوم الهنيء والعيش الرغد ، وتتوهمون دوامهما دون جهد او مشاركة في حمل جزء من العبء ؟

وهنا اطرق عبد الرحمن ، وساد القاعة صمت لم تتردد خلاله سوى زفرات الحجاج التي ظل يطلقها كأنها خيوط من لهب ، ثم ساور عبد الرحمن حمل ثقيل اذ احس بحرج صدره وبهمته الى اسداء الرجال في تلك الآونة العصيبة التي يحاصرها حكم بني امية في العراق وفارس وغيرهما من الاقطار القريبة والبعيدة على السواء

رفع في النهاية رأسه وثبت ناظريه في وجه الحجاج الذي واجهه بنظراته الصارمة يتملها ثم اندفع « عبد الرحمن » يقول على مسمع من الحاضرين الذين احدثهم حدة الموقف

— قد فعلت ما استعملتني عليه أيها الأمير ، ولكن على سرط واضح وانفاق يستقيم لنا مثل حد السيف المسحود

قال الحجاج مبهورا وما هو سرطك يا عبد الرحمن ؟
اجاب عبد الرحمن

— لست اقبل قيامي على سرطه الكوفه الا ان تكفيني ندخل عمالك وولدك وحاشيتك ، ولست اقبل في الحق ساعة كسر ، ولو تكون خليفة المسلمين نفسه

قال الحجاج مبهجا

— قبلت سرطك يا عبد الرحمن دون زياده او نقصان منذ العبد نطوف مباد نعلن في الناس تولينك سرطه الكوفة وما اشترطته علينا لتأخذ الحق سبيله والعدل مجراه وليس لسلطانك في معاملك الحديد على بركة الله

* * *

لم نغمض جفنا « عبد الرحمن بن عبد التميمي » في تلك الليلة ظل ساهر الطرف تقلب امره وامر الناس على كل الوجوه انها وظيفة شاقة لم تكن له عهد بها من قبل وليس ندري اي السبل سلكها في ضبط امور هذا البلد الذي اختلط فيه الحابل بالنابل ، ولبس الباطل فيه ثوب الحق ، وبات اقدار الناس وارواحهم واقواتهم مرهونة بارتكازها على هذه الفئة او هذه الطائفة !

ويسائل « عبد الرحمن » نفسه ترى ارجح سبل الموادعة واللين والموعظة الحسنة ، او تكون حد السيف حز فيصل بيني وبين الناس ، وهذا كتاب الله بين ايدينا يهدي الناس الى صراط مستقيم ؟

لقد طل « عبد الرحمن » فى تلك الليلة نهبا لأفكاره الثقيلة تحدثه هنا وتدفع به هناك ، ثم تطوح به فى حاضرة الطائف الى مكة التى غاب عنها ونزل فى بطحائها اهله وولده وتجارته وامواله وشئون حياته ، وفى النهاية تعلبه النوم مع اولى خيوط الفجر الذى بدا يلوح من بعيد

هب عبد الرحمن من عمق النوم على صوت طرقات غليظة على باب الدار تبعه صوت راعد ينادى فى الناس

— يا اهل الكوفه .. لسمع الدانى ويبلغ القاصى .. يامر الحجاج بن يوسف الثقفى أمير العراقين ، قد تولى امر الشرطة منذ اليوم « عبد الرحمن بن عبيد التميمى » وعلى كل صاحب حاجة الا يلجأ اليه الا بالحق او تبرأ منه الذمة .. سيقوم المعوج بالحزم ، وسيأخذ الحق بالعزم وقد أعذر من انذر يا اهل الكوفة

انسم عبد الرحمن وهو يصيخ السمع الى كلام المنادى يدور به من دار الى دار فقام من نومه وغادر فراشه ، وأحس به غلامه الواقف خارج غرفته ، ولم يلبث ان نقر على الباب ودخل اليه يسأله عن حاجته قبل ان يخرج الى ساحة الدار

طلب عبد الرحمن الى غلامه ان يهيء وضوءه ثم قام وصلى وارتدى ثيابه وتمنطق سيفه ، وخرج الى ساحة دار الشرطة ، فرأى الحرس يصطف لاستقباله ، ثم تقدم كبيرهم يخاطبه

— نسأل الله لك العون على اخذ الحق ليسود العدل حتى لا نسمع انات المظلومين والحيارى ، وستجد ان شاء الله رجال حرسك اطوع لك من بنانك ، والله ناصرك

وسأل عبد الرحمن .. ما اسمك يا فتى العرب ؟ اجاب رئيس الحرس دؤيب بن سعيد الباهلى من الطائف يا سيدى الأمير .. قال عبد الرحمن وكم عدد رجال الشرطة هنا فى الكوفة يا دؤيب ؟ اجاب رئيس الحرس

كنا بلاثمائة يا سيدي الأمير وأصبحنا اليوم مائتين بعد قتالنا لسيف الخارجي ، وان ساء الأمير الاكتفاء بعددنا بدلنا أرواحنا رخيصة في ضبط الأمور بالحق والعدل ، وان سبب زيادة عددنا ، كان خيرا وبركة

وقبل ان يسترسل الحديث بين عبد الرحمن ودؤيب ، سمعت صرخة امرأة تدوى من بعيد ، ثم أخذ صراخها يقترب رويدا من دار الشرطة ، واستطاع عبد الرحمن ان يميز بعض كلمات من خلال الصراخ النائح وارجلاه واروحاه

اشار عبد الرحمن الى دؤيب أن يحضر المرأة ليسمع قصيتها ، فقالت من خلال دموعها الهاميه

— لم يأت ورب الكعبة ديبا ولا اثما كان زوجي يبيع سمكا صاده من ماء أمام دار « عقيل بن مدرك » وبعثه « ياسر » خادم عقيل يبغي نصف السمك او يعطيه درهمين ، وزوجي صياد فقير يكدح بعرقه ولا يملك حتى قوت يومنا ، وحين استمهله زوجي حتى المساء، طعنه بخنجره في بطنه فمات لساعته ترى هل يرضى الله لعبده كل هذا الهوان ؟

خرجت نفس عبد الرحمن واحس بشيء غليظ يعتصر قلبه حين راى أسمال المرأة النائحة واجزاء من يديها الأعجف يبدو من خروق ثوبها المهلهل وحملق طويلا في وجهها ، فلم ير فيه أثرا للدموع كانت فجيعة المراه في فقد زوجها أعمق من ان تستدل من أجلها الدموع ، او كأنما كانت هناك دموع سبقت ثم تحجرت من هول الوجعة

ودخل رجال الشرطة يمسكون بالشاب الجاني وفي يده سلاحه الذي بقر به بطن الرجل القتيل ، واخذ « عبد الرحمن » يتفرس فيه بعينين نفاذتين فلمح في اثماءاته صلفا يبدو انه اكتسبه من سادته الذين يعمل عندهم ، ولم يلبث ان سأله أهذا سلاحك ؟ قال الفتى في زهو مستور انى وما

أحمل ملك لسادتى آل عميل بن مدر شيوخ تجار الكـوفة قال عبد الرحمن وهل أذن لك سادتك بقتل الناس فى الأسواق جهارا دون خشية من قصاص ؟ قال الفتى مستهزئا اى قصاص يا سيدى ؟ لقد نهرت الرجل أكثر من مرة ليصطاد فى مكان آخر فلم يعبأ بى قال عبد الرحمن وهل ملـكت مياه دجلة لتمنع او تبيح كما تشاء ؟ حربى هل قتلت الرجـل بخنجرك هذا ؟ قال الفتى المزهو كان يريد قتلى فعاجلته قبل ان يقضى على

وهنا اشار عبد الرحمن الى دؤب ان يمسك سلاح الفتى القاتل ، وطلب ان تشد بحبل غليظ ، ثم اختار من بين الرجال واحدا وطلب اليه ان يطعن القاتل فى بطنه بنفس سلاحه طعنة تنفذ من قلبه الى ظهره

وخر الفتى القاتل صريعا على الأرض وهو يلفظ انفاسه ، فامر عبد الرحمن ان يحمل جثته الى دار سـادته ، كما أمر لأرملة القتيل براتب من بيت مال المسلمين

وقبل ان تغيب الشمس فى ذلك اليوم ، احب عبد الرحمن أن يطوف بشوارع الكوفة ، وان يتفقد الأسواق ، وأن يرى وجوه الناس بعـد ان بلغهم ما جرى لغلام آل عميل ، وبينما هو يتجول فى السوق الكبيرة ، تقدم اليه رجل مهيب الهيئة انتدره قائلا

— بأبى انت وامى يا خير من وفد الى بلـدنا من امراء الشرطة نسـأل الله ان يجزيك عن الفقير خيرا ، وعن الضعيف قربا الى أرحم الراحمين قد حكمت فعدلت فبررت

* * *

أحس « عبد الرحمن » بصدق ما استقبله به الناس فى ذلك اليوم ، وعاد الى داره رضى الخاطر ، وطلب الى دؤب أن يذيع فى النـاس أن دار الشرطة ستبقى مفتوحة الأبواب بالليل وبالنهار من اجل امن المسلمين ومعاشهم

وعدوهم ورواحهم ، بل ومن احـــل المارقين والمفســـدين حث يلقـــون القصاص بالعدل والقسطاس

وأمسى اهل الـــكوفة واصبحوا ولا حدث لهم الا عن أميـــر السرطه الحديد وصلابته في احد الحق ، وتمنوا لو نطول حتى يردع كل جبار مدل بما يملك من جاه ومال

نعم كان آل « عقيل بن مدر » عنوانا لتسلط الأعنياء على الفقراء وتحبر الأقوياء على الضعفاء في مدينة الكوفه بالجاه والمال كانوا يرتكبون المعـــاصي والآثام ، ويغتصـــبون ما ليس لهم ويتصـــعرون خـــدهم لأى سريعة او نظام كان القانون يصل الى بابهم ثم يقف ضعيفا حائرا او يصل الطريق اليهم انصارهم وصنائعهم مبثون في مجالات الأعمال والأسواق ومناصب الدوله ، ومن ثم لا يجرؤ مخلوق على مواجهة تجبرهم وطغيانهم كانوا سهبون أرزاق الفقـــراء في قرصنه باغيـــة ، حتى بات أمرا مألوفا ان ياخذوا ويفعلوا ما يريدون بالحق وبالباطل على السواء

على أن القصاص الذى أوقعه امير السرطة الحديد بغلامهم « ياسر » في ذلك اليوم ، كسف لأنصارهم صفحة جديده في تاريخ مدينة الكوفة ، ولقد أوشك الغضب ان يســـتبد بهم وان ياخذهم العـــزه بالاثم ، لولا أن كبرهم نصح لهم بالتريث ريثما تتكسف لهم نوايا أمير السرطة الحديد

في تلك الليلة غفا عبد الرحمن في نوم هادىء وهو راض عن نفســـه غاية الرضا بعد ان أصدر اول حكم له ، غير أنه صحا من عميق نومه بعـــد انتصاف الليل على اصوات هرج في الساحة الخارجية لدار السرطه ، فاخذ يصيخ السمع الى حـــديث يدور بين « ذؤيب » رئيس حرسه وبين أحـــد رجاله

— رآه جيران المنزل المحترق يتسلل الى سطح الدار ويسكب الزيت ثم يشعل النار التى لم تلبث ان أتت على ما في الدار من متاع ، ولولا أن غادرها اهلها لراحوا طعاما للنيران

— واں هم سهود الحادب ؟

— انهم نمعون هناك ، ولولا نمطتهم وحهدهم فى دمع الـــار عن دورهم لاحترقت هى الاحرى

— ادں ادحل الحانى الى الحسں رىما ىصحو الأمر ، وعلى السهود ان ىعودوا الىا فى الصاح

وانقصت ساعات اللىل الناقىه ، فقام « عىد الرحمں » وتوصأ وصلى الصبح ثم حرح الى الساحة فرأى الحموع الغفىرة تملأ المكان وتتطلع اليه، ولما ان اقترب الى وسط الساحه ران علىهم صمت ىلىع قطعه عىد الرحمں فى صوت عمىق

— انه ىا حارق دور الآمىں ، ىمادا ىدفع عں ىفسك هده الفعلة الىكراء ؟

قال الرحل مىححا ماطلىى فى ســـداد دىىه وفى النهـــاية انكر على حقى وقال ادهب الى قاصى الكوفه

قال عىد الرحمں قال والله كلاما معقولا ولكنه لم ىوافق هوالـ ، فاحرقت داره وسردت اهله وعىاله اىں صاحب الدار ؟

وحرح رحل مں ىں حمـــوع النـــاس ىقول انا صـــاحب الدار التى احرقها هدا العىار والله ىا سىدى لىس له حق عىدى ولا دىں ، انما هى صرىبة الفقراء ىدفعها لامىاله لكى ىستمر حىاتنا رىمى لىا ارزاقا ، وقد اقاموا والله مں انفسهم دولة داحل الدولة ســـاندهم فى ىعىهم آل اىں مدىر والأمر مں قىل ومں ىعد لله ولك انها الامىر هاهم اهل ىىى وعىالى قد أصـــبحوا ىلا دار تؤىهم وىلا عطاء ىستر ابدانهم

وصاح رحل مں ىں الحموع انه ىسلىى عشره دراهم فى غره كل شهر لىكف عىى اداه اللهم حلصىا مں القوم الظالمىں

أسار عبد الرحمن الى رئيس حرسه ان يقترب منه ، ثم أمر في أذنه كلاما لم يسمعه غيرهما ، فدلف « دؤب » الى داخل دار الشرطة وغاب فيها لحظات عاد بعدها مع رجاله يحملون حطبا واحسابا كوموها في وسط الساحة ، والقى دؤب عليها بعض الزيت وأشعل النار حتى اندلعت ألسنتها الحمراء ثم حملوا الجاني المقيد بالحبال والقوا به في وسط النار المشتعلة



بلغ الحجاج انباء «عبد الرحمن بن عبد التميمي» وماشرله بالعيارين والشطار وناهبي ارزاق الفقراء ، فكان ينظر في وجوه جلسائه وخاصته ويبتسم في رضا

وترك عبد الرحمن دار اقامته المواجهة لدار الشرطة ، وارتضى لنفسه غرفة بسيطة الاثاث في اعلى دار الشرطة وضع فيها حوائجه القليلة واتخذ منها مقاما له بالليل وبالنهار لا يبرحها الا لأمر جلل

وأدرك اهل الكوفة ان عهدا جديدا قد بزغ فجره في تاريخ بلدهم ، وان رحمة الله بهم شاءت ان تبعث لهم بعبد الرحمن التميمي بعد طول ظلم وظلام لتخلص الفقراء من بطش الأغنياء والضعفاء من جبروت الأقــوياء ، ولتضع كل امر في نصابه بالحق والعدل

ومنذ انتقل عبد الرحمن ليقيم في دار الشرطة حرص على ان يعلم اهل الكوفة انه رجل طويل الجلوس في مكان عمله لا يبرحه لحظة واحدة بالليل او بالنهار ، وأنه لا يقبل في الحق شفاعة أو وساطة حتى ولو كانت من قبل امير العراقين أو امير المؤمنين

وانقضت اربعون ليلة على حادثي قتل صائد السمك الفقير واحراق الدار لم يقع خلالها ما يعكر صفو الناس او يكدر امنهم حتى استبد العجب بعبد الرحمن فأخذ يسامر دؤيبا ذات ليلة ويقول

— أي دؤب لنا اليوم اربعون ليلة لم نمسك رحالك بأحد ترى هل كف المارقون عن عبثهم وافسادهم ، ام زالـ نخفى عنى حقيقة الحال ؟

وابتسم « دؤب » قبل ان يجيب ان ما بدا من حزمك وعدلك ايها الأمير قد قطع الطريق على العابث والطغـاه ، وادرك العيارون والشطار ان عليهم ان يفكروا مرتين قبل ان يوسوس لهم الشيطان بارتكاب جرم ما

وسكت « عبد الرحمن » لحظة ثم قال واهل الكوفة ماذا يقولون؟

قال دؤب على الفور يكفى للأمير أن يحقق بنفسه ويسـمع بأذنيه وباديه ما يلهج به السنة العامة والخاصة على السواء قد جاوز والله ذكرك مدينة الكوفة الى كل بقعة فى ارض الجزيرة ، وتمنى المسلمون لو يكون لك شبيه فى كل مدينة

* * *

صحا « عبد الرحمن » ذات صباح على اصوات جلبـة ووقع حوافر خيل تروح وتجيء خارج دار الشرطة ، فاطل من نافذة غرفتـه فلمح موكب « الحجاج » يتوقف امام الدار ، فغـادر على الفور فراشـه وارتدى ثيابه على عجل وخرج يستقبل أمير العراقين

قال الحجاج وهو يتفرس فى وجه عبد الرحمن ويحاول ان ينفـذ الى أغوار نفسه

ـ قد صـدقت والله فراستى فى حزمك يا عبد الرحمن ، وها هى ذى خواطر المسلمين قد سكنت وعادت بسمات الحياة تضيء فى قلوبهم ووجوههم من جديد لعلك راض عن عملك يا عبد الرحمن بعد ان اعدت للناس أمنهم وحفظت عليهم حرماتهم

قال عبد الرحمن مبتسما أسأل الله لى ولك رضاه ايهـا الأمير وأن يغفر لنا ما لايرضاه من افعالنا وما تنطوى عليه القلوب

أردف الحجاج راضيا

ـ حسنا والله انك اليوم مسلما فهل رحيلي الى دمشق للقـــاء امير المؤمنين ، على يقين بان الامور ستجرى بين يديك على خير ما ارجوه رسما أعود

قال عبد الرحمن في رعاية الله رحلتك واوبتك ايهـــا الأمير ولو انني كنت راجيا ادبك في السفر الى مكه لرؤية الأهل والولد

ضحك الحجـــاج في مرح صاخب ثم قال كلانا في الشوق الى الأهل سواء يا عبد الرحمن وسكت عبد الرحمن مستحيا ثم اردف الحجاج

— لم يبق الا امر يسير سترضى بالقيـــام به من اجل المســلمين ان شاء الله

قال عبد الرحمن في سبيل الله ودينه يهون كل امر ايها الأمير

سكت الحجاج لحظة واحدة يتفرس في وجه عبد الرحمن ثم قال وهو يمد يده مسلما

ـ قد اضفنا الى عملك شرطة البصره منذ اليوم ، والله نسال أن يوفقك في ضبطها مثلما ضبطت لنا الكوفة يا عبد الرحمن



"تحت الجدار ...."

لبست بغداد ثوبها القشيب واخذت زخرفها وازينت بعد أن شاع في المدينة نبأ رؤية هلال رمضان لعام ٢ للهجرة ، ولم يلبث التجار في السوق الكبيرة أن أخرجوا احسن ما لديهم من بضائع ويعرضونها على واجهات متاجرهم المبنية على جانبي شوارع السوق

كل أيام شهر الصوم في بغداد آنئذ ، اعياد موصولة وهناء يطرب له النفوس ، فالحياة رخية ، وأسباب العيش ميسوره للفقير والثرى ، وفي بيت مال المسلمين مدخر وافر للأعطيات ، والخليفة العباسي المأمون يسع ايامه بالبهجة والأمان ورغد العيش

وبغداد منذ أن شيدها « ابو جعفر المنصور » اصبحت عروس البلاد العربية ، وباتت كعبة القصاد من اقاصي الشرق واطراف الغرب ، وهي بعد، حاضرة الخلافة العباسية بديلة عن دمشق حاضره الخلافه في أيام الأمويين

حلقات الدروس والفقـه والحديث مبثوثه في صحون المســاجد وفي المدارس ، وحتى في الأسواق ، وبيوت العلماء والأئمة والفقهاء ستشغل في كل ســاعة من ساعات الليل والنهار ، طـلاب العلم والمعرفة والراغبين في الاستزاده من علوم الاسلام وآدابه وشرائعه وسننه ، كما يفد اليها التجار من كل حدب وصوب ، من بلاد الصين والهند والترك وخراسان ، ليبيعوا في اسواقها طرائف بلادهم من حريرها وصوفها وصنوف فاكهتها وما ينبته ارض الله الواسعة

دخل المنادون الى السوق وأعلنوا ان اول أيام شهر الصوم الـكريم يبدأ منذ الغد ، وان من كان معسرا لا يأتيه الرزق ميسرا ، فسيجد فى عطاء المأمون خليفة المسلمين ما يدفع عنه الضيق والمسغبة

ساعتها تطلع القوم الى السماء ، فرأوا مآذن المساجد تضيئها القناديل كأنها النسمات ، وانفرجت الشفاه عن بسمات عريضة أضاءت الوجوه وجوه تجار بغداد ، ووجوه الرجال والنساء والأطفـال الذين توافدوا على السوق لشراء حاجتهم من الطعام والفاكهة والحلوى ، وصنوف ما يستقبل به الشهر الكريم

وامتـدت حركة البيع والشراء ، والأخذ والعطـاء حتى جاوز الوقت منتصف الليل ، ولما أن هدأت الحركة ، خف تجار السوق بعضهم الى بعض وتصافحوا فى اعزاز وود وارتفعت دعواتهم الى الله أن يعيـد ايام الشهر المفضل على المسلمين وهم ناعمون فى رغد من العيش

لـكن « عمار بن سراج الكوفى » ظل منزويا فى ركن قليل الضـوء بمدخل متجره بعد ان صلى المغرب والعشاء ، وأسند رأسه الى ظهر اريكته الخشبية التى اعتاد ان يستريح فوقها ، وترك العنان لخواطره الكثيرة

انه اليوم يحس عليه هم ثقيل ، ويكاد ان يغرق فى أحزانه التى تلاحقه منذ أوائل شهر شعبان الذى انقضى

لم يلتقط أذنا « عمار » شيئا من ضجة السوق الكثيرة فى هذه الليلة الوضيئة ، ولم يشهد غناء مواكب فتيان بغداد الذين اخرجتهم من بيوتهم فرحة استقبال شهر الصوم ، ولم يحس بهجة القوم وهم يمضون امام المتاجر تلفهم بشر غامر وتدغدغ قلوبهم آمال كبار

كانت هنـاك غمامة ثقيلة تحجب عن ابصـار « عمار » كل ما يجرى أمامه فى تلك الليلة ، لكنها لم تحجب عنـه ذلك الشريط الطويل من صور العام الماضى بما حمل من مسرات وافراح

رأى عمار نفسه فى مثل هذا اليوم من السنة الماضية يلهب حماسة عماله ومساعديه ليفرغوا من فتح صناديق الحرير التى جاءته من بلاد الهند والصين ، ومن نشر البسط الثمينة التى وردت اليه من خراسان ، ومن عرض اوانى النحاس والفضة التى صنعت خصيصا لحسابه فى مدينة بخارى ،والتى يعلم انها تزين موائد الخلفاء وأبناءهم وولاتهم ، ومن ذا الذى لا يعرف « عمار الكوفى » عميد تجار الطرائف التى تقتنيها الملوك والأمراء وسراة القوم فى بغداد وفى غيرها من بلاد الجزيرة ؟

كل بيت عريق فى بغداد عروس الشرق وحاضرة العباسيين ، لا يخلو من طرفة ثمينة اشتريت من متجر عمار ، فهذه ربا مصنوعة من قضبان الذهب والفضة تتدلى من سقف غرفة نوم الخليفة فى قصره بالرصافة ،وتلك جبنه من الديباج المخطط باسلاك الذهب ومحشوة بريش النعام ، هى المفضلة عند « زبيدة » زوجة الرشيد عندما تعقد مجلس سمرها وجواريها ، وذلك البساط الأحمر فى لون العقيق الذى اوصى عمار بصنعه خصيصا فى مدينة كاشان ليمشى عليه المامون وعروسه بوران فى ليلة الزفاف ، وقد كان آية رائعة فى صناعته ونقوشه ونعومته وطوله الذى بلغ مائة ذراع ، مع أنه قطعة واحده

ويبتسم عمار لنفسه وهو يسترجع حديث اهل بغداد عن ذلك البساط العجيب ، وكيف لم يستطع عشرون رجلا حمله ، يوم رست السفينة التى حملته بميناء البصره ، وكانت لا تحمل من خراسان غير بساط أمير المؤمنين

وينقبض بسمة « عمار » حين ذكر ذلك اليوم الذى لا ينساه ، يوم ان ذهب الى قصر المامون ليفرش بنفسه البساط تحت قدميه ، ثم نقده فيه بما لم يكن يخطر له على بال

اين ذلك كله ، واين أرباحه الوفيره التى افاضها الله عليه فى ذلك العام المبارك ، أين ذلك كله مما هو فيه اليوم ؟

انه اليوم لايملك من تجــارته وأمواله سوى ذلك المتجر الذي حوى على عروســه بعد أن تأخر وصول القوافل والسفن التي تحمل بضــاعته وآماله

لقد وضع عمار أغلب رأس ماله وأموال غيره من تجار بغداد في هـــذه القافلة التي ستأتيه من بلاد الترك والسند والصين تحمل منها أثمن بضاعتها وأجود ما تنتجه أرضها ، ولقد انقضى شهران طويلان على ميعاد وصولهـــا المرتقب ولم تأت عنها نبأ أو خبر

وهو لا يملك الى جانب حواء متجره ، غير داره في الكرخ أرقى الأحياء في بغداد وما تحويه من أثاث وحوائج ، والتي تعيش فيها مع «بدر» زوجته الوفية وأم ولديه هارون وجعفر

وأفاق عمار من سرحته على هزة رقيقة من يد جاره « ابن طاهر » تاجر البذور الملاصق لمتجره قال ابن طاهر أمائم انت بارجل والنـــاس تحتفل بقدوم شهر الصوم ؟ ماذا بك ياعمار ؟

نظر عمـــار في وجه جاره الطيب ولم يجب كانت أحزانه اثقل من أن يزيحها عن صدره بالحديث مع تاجر مثـــله وماذا يقول له لو طلب له ان يبادله الحديث ؟ هل يقول اليه انه قد بات مفلسا لا يملك غير داره ، وهي بدورها ستتعرض يوما للضياع ؟

رد على تحية جاره بايمائه من رأسه وأخذ يتمتم بكلمات غير مفهومة، وحين اثقل عليه ابن طاهر ، قال عمار وهو يطلق من صدره انفاسا ملتهبة — اصلحك الله يا ابن طاهر ، اذهب الى دارك وابنائك ، فان ما يشـــغلني لا يقدر على تفريجه الا فاطر السموات والأرض

❋ ❋ ❋

أغلق عمار متجره الكبير في السوق ، ولو قد تركه مفتوحا على مصراعيه ما ضره ذلك في شيء ، وانزوى في داره بالكرخ ينتظر مصيره الفاجع ، ولم

طيب رمل السريد من الثغور المرينة والبعيدة أن جاءت تحمل الأشياء النبيلة لقد عرفت قافلة البواخر العربية في بحر الظلمات وهي في طريقها الى ميناء البصرة عاصف القافلة بما تحمل من بضاعة تجاوزت أثمانها آلاف الآلاف من الدنانير

لم يستغرب عمار ان يأتيه اخيرا ذلك النبأ المسموم ، وهو بعد تاجر عركته التجارب وصقلته صروف الدهر والأيام ، وهو لن يكون أول من أفلس من التجار ولا آخرهم ، والتجارة من قبل ومن بعد ، مثلها مثل الحياة ، تعطي وتأخذ حينا ، وتأخذ ولا تعطي حينا آخر !

ثم هرب عيد الفطر وبشر مع اقترابه أنفاس بهجته على سوق بغداد وفي قلوب اهلها من رجال ونساء وأطفال ان هي الا أيام معدودات وينقضي الشهر الطيب الكريم ، ويحتفل به المسلمون في كل بقعة تؤذن في سمائها بذكر الله العزيز

ونهض عمار من ذهوله وكمده ذات يوم على صوت طرقات غليظة على باب داره ، وحين خرج ليرى ما الخبر ، وجد الشرطي يبلغه بانه في صبيحة الغد ، ستباع داره بما تحوي من أثاث ومتاع وفاء لدين عليه الى «ابن مسارع» احد التجار في سوق بغداد

لم يجزع عمار ، بل رضي بقضاء الله ، وعاد الى داخل الدار ليمضي فيها آخر ليلة له لقد جافاه النوم في تلك الليلة الثقيلة فجلس في ركن مظلم بغرفته التي تطل على بستان داره غدا سيفارق هذه الدار ويخلو عن حي الكرخ الى غير أوبة ، وسيخرج من بغداد التي عاش فيها ايامه الحلوة اليانعة التي عرف باطيب ما في الحياة من مباهج غدا يفارق ابناؤه بستان دارهم ومدارج مراحهم ولهوهم ليستقبلوا أياما عصيبة سوداء لا مرح فيها ولا ضحكات

وأمضت « بدر » زوجة عمار ليلتها الأخيرة وساعاتها الطويلة تجمع حوائج الأسرة وتحزم لفائف اثاثها وبعد عدتها للرحيل في غد وهي تكفكف

،معها الهاطل اذا ما دحلت هده العرفه او عرب دلك الممر الموصل الى ستانهم اليانع بالأزاهر والحصره واسحار الفاكهه وحمائل الورد

ثم علب النوم « عمار » قرب مطلع الصبح ، وراودته فى أحلامه صور باهره وأحيلة سائغة لم تعرض له من قبل فى أحلامه الكثيرة

راى فى حلمه بساط المأمون الأحمر يمد تحت قدميه بعد ان تحول لونه من الأحمر القانى الى الأخضر الزاهى ، وانه يمشى فوقه والطيور تغرد من حوله وتلتقط الحب من كفيه الممدودتين

وصحا « عمار » من نومه مفزعا على صيحة فى الحى اصاخ اليها سمعه، فأدرك من ورائها قرب النهاية سمع صوت الدلال يطوف بالحى ويدعو الناس الى التجمع امام دار عمار ، فاليوم يوم بيع الدار بما تحويه من متاع ورياش

فتح عمار باب داره قبل أن يطرقه ابدى رجال قاضى بغداد ، واخذ يدعو راغبى الشراء الى الدخول لمشاهده الدار وعرفها وما فيها من المتاع ، لكنهم استحيوا من الولوج الى داخل الدار واهلها لم يبارحوها بعد

وفتح الدلال مزاد البيع بنائه دينار زادها واحد من المشترين الى مائتين ، ورفعها واحد آخر الى ثلاثمائه ، ثم اعقبه راغب ثالث أوصل ثمن الدار الى خمسمائه دينار ، ولم يرد عليه أحد دينارا آخر

صرخ عمار ، وحاوبته من الداخل زوجته « بدر » بالعويل ثم اندفع يقول لراغبى الشراء ايها اللصوص تدفعون خمسمائه دينار فى دار كلفنى بناؤها وحده الفى دينار ! ويلكم من عذاب الله يوم الحساب

واسرى الدلال بين جماعة القوم من جديد ، ولكن أحـدا لم ينطق بحرف

واتسم عمار فى مرارة بعد ان ادرك حقيقة الأمر ان الذى الذى أسهرب من أجله داره للبيع فى المراد ، هو نفس الثمن الذى لم يرد عليه المشترون درهما واحدا دفعه خمسمائة دينار « لابن مارع » الذى سعى ان ياخذ مقابله دارا يكلف بناؤها وحده الفى دينار ، اما متاع الدار وفرشه ورياشه وطنافسه فلم يدخل فى حساب ابن مارع الجشع الذى وجدها فرصة مواتية للحصول على أكبر شئ بأقل ثمن !!

اخذ عمار يتفرس فى وجوه المشترين فيهيأ له انها وجوه ذئاب ركبت فوق اجساد بشر مثله ، ولم يلبث ان قال

ـ قد رضيت يا ابن مارع ان آخذ فى دارى خمسمائة دينار لا يزاد عليها درهم واحد ، ولكن بقى امر آخر لم يدخل فى حسابك

قال ابن مارع صاحب الدين وما هو هذا الأمر الآخر ياعمار ؟

قال عمار

مادمت قد حصلت بدهائك ومكرك على دارى مقابل دينك ، فكم تدفع بعد ذلك ثمنا لجوارك « لأبى دلف » سيد اهل الجود فى بغداد ؟ هاهى ذى داره بلاصق دارى

وكان بشارا اطلقها ملحة او فكاهة فلم يلبث الواقفون والمشترون ان ضحكوا ملء قلوبهم حتى طفرت من عيونهم الدموع فقال ابن مارع وهو يغالب الضحك

ـ اظنك يا عمار ستبيع لى بعد ذلك الهواء الذى يسرى فى رحبة الدار وضوء الشمس الذى يتخللها فى النهار وشعاع القمر الذى يدخلها فى الليل حتى يصلحك الله مالى وجوار قاسم بن عبد الله «ابى دلف» ؟ ان جواره لن يكسبنى شيئا وعدم جواره لن يضيرنى فى قليل او كثير

وفوجىء القوم برجل عاصب سدفع من البيت المجاور ونتقدم الى صاحب الدس ويقول

ــ قد سمعت كل ما دار بينكم ، وارى انك لاتساهل ان نكون جارا لى ان أبا دلف ندفع لك الآن دينك على عمار هنا ادهب عنا لا أرحمك الله

وألجمت الدهشه ألسنة القوم وهم يرون قاسم بن عبد الله «ابا دلف» يرمى بكيس الدنانير فى وجه ابن مارع الذى انصرف يجرجر وراءه اديال خزيه ومن ورائه بقية القوم داهلون

وبلغ « المأمون » حكاية عمار وأبى دلف ، فبعث برسوله الى عمار ليحظى بلقاء أمير المؤمنين

وفى صبيحة يوم العيد ، شاهد التجار فى السوق عمارا يعاود فتح متجره ويبدأ تجارته من جديد



حنان من مكة

بدأ قرص الأرجوان رحلته الدائبة نحو المغيب، يجرجر من ورائه سحائب ضوء النهار الفائت، واخذت ظلمة الغروب الرمادية ترحف حثيثا من خلف الافق، فبدت الدور واشجار النخيل الباسقة ومآذن الحرم كأنها أذرع تبتهل الى رب السماء والكعبة أن يظل الخلق بنعمائه، فهو المحمود على سرائه وضرائه

وانطلق صوت عذب عميق يؤذن لصلاة المغرب، فهرع السائرون في الشوارع واصحاب الدور والمتاجر الى المسجد الحرام الذي تجمعت في ساحته اسراب الحمام الابيض تطير هنا وتحط هناك وقد يطيب له ان يستكين على اكتاف المصلين تارة وعلى ظهور الساجدين تارة اخرى

ولما ان فرغ « عبد الرحمن بن ابي حسين » من صلاته غادر المسجد قاصدا الى داره، بينما ظلمة المسا تجثم رويدا على بطاح مكة وعلى الدور والشوارع والكائنات

اجتاز « عبد الرحمن » فناء داره الواسعة واتجه من فوره الى القاعة الكبيرة واخذ ينادي على خادمه « عبيد » من داخل الدار ليملأ القناديل بالزيت ثم يوقدها فغدا قليل سيستقبل وجهاء القوم والأصدقاء والمحبين ليهنئوه بقدوم اول مولود ذكر رزقه به الله بعد طول انتظار وترقب

ولكم تمنى عبد الرحمن لو ان الله من عليه بهذا الغلام منذ بضع سنوات خلت، وقت ان كان المال يسيل من بين يديه كالمطر الوابل وتجارته تدر عليه بعد موسم كل حج اضعاف ما كان يصبو ويأمل

لكن المقادير شاءت ، والله من ورائهــا ، أن يجيء مولود عبد الرحمن وهو في عسر من الحال ، وضيق فيما يملك من المال ، وان بدا للناس انه لم يزل ندي الكف سباقا للعون والغوث

نعم لقد اصاب العسر « عبد الرحمن » بعد أن افرض شريك تجارته وصديق طفولته « بشرا » أكثر من نصف ماله يوم سافر الى الشـــام ليجمع من بضاعتها مثلما يجمع في كل عام ، ثم طلعت على القافلة جماعة من الشطار وقطاع الطريق ، فقتلت بشرا ومن معه من الرجال ، واغتصبت الزاد والمال

لم تكن مستعربا في تلك الآونة من حكم « عبد الملك بن مروان » ان تغير اللصوص على قوافل التجــارة وعلى غيرها ، فقــد كانت فترة تموج بالاضطراب وتصطخب بالفتن الهوجاء التى يثيرها الخوارج والطالبيون من جهة ، وشيعة عبد الله بن الزبير في أرض الحجاز من جهة اخرى

ولم يحزن عبد الرحمن على فقد ماله ، بقدر ما اشفق قلبه جزعا على موت « بشر » وتيتم أبنائه وترمل زوجته ، بعد ان كان يملأ الدنيا عليهم وعلى أحبائه حبورا وجودا وحلو لسان

أفاق « عبد الرحمن » من شرحته على رائحــة الطيب والصندل التى أطلقتها المجامر من زوايا القاعة الكبيرة ، فغادر مكانه الى خارج الدار ليكون في استقبال ضيوفه الذين بدأوا في الوفود ، هاشا في وجوههم ومرحبا بهم في حفاوة واشراق

وفي داخل الدار ، احدثت « هـــند » زوجة عبد الرحمن ســـادى على « عبيد » الذى ما انفك يروح ويغدو حاملا قصعات الطعام الى الرجال في القاعة الكبيره ، او سكب ماء الورد في آنية الشرب ، ولما أن وقف بين يديها بادرته كم بلغ عدد الضيوف من الرجال يا عبيد ؟ قال يزيدون عن المائة يا سيدتى قالت هند مأخوذة ويحك ! ألا يعلم سيدك انه لم يعــد لدينا كسرة خبز ؟ والنسوة كم هن ياسقى ؟ قال عبيد يبلغن نصف عدد الرجال

يا سيدى قال هند وبحى لم يبق عندى الا ملء حفنتين اسمع ياعبيد اذهب من فورك الى دار احتى عاتكة واسألها كل ما لديها من طعام ثم نصحه هيا وعجل ياسقى

لم تتحرك « عبيد » من مكانه واخذ يحدق فى الأرض بعد ان حز فى قلبه خلو الدار من الطعام فى تلك الليلة التى أقبل فيها الناس يهنئون سيده ويباركون له ، فلم يلبث أن رفع عينيه الى وجه سيدته ، فلمح فيهما دموعا يوشك أن يسكب فقال بأبى انت وامى يا خير زوجة خففى سليك بعض الغرم والكلفة ، فوالله لألهين ساءك حتى لايدرين ما وضع لهن وما أصابوا من طعامك

وانفلت « عبيد » من أمامها وانزوى فى ركن من صحن الدار ، وأخذ ينقر على دف له ، ثم اندفع يغنى بصوت هو أعذب من رنين الفضة واوقع من بلابل الروض أبياتا لشاعر الغزل « عمر بن أبى ربيعة » الذى طارت شهرته من أرض الحجاز الى كل بقعة ينطق فيها لسان عربى

نظرت اليهـا بالمحصب من منى
ولى نظر لولا التحرج عارم

فقلت أشمس أم مصابيح بيعة
بدت لك خلف السجف ام أنت حالم

بعيـده مهوى القرط أما لنوفل
أبوها واما عبد شمس وهاشم

ومد عليها السجف يوم لقيتها
على عجل تباعها والخوادم

فلم أستطعها غير ان قد بدت لنا
على الرغم منها كفها والمعاصم

معاصم لم تضرب على البهم بالضحى
عصاها ووجه لم تلحه السمائم

نضير ترى فيه أسارير مائه
صبيح تغاديه الأكف النواعم

اذا ما دعت أترابها فاكتنفنها
تمايلن او مالت بهن المآكم

طلبن الصبا حتى اذا ما اصبنه
نزعن وهن المسلمات الظوالم

وترك الرجال والنساء السماط والطعام وما كانوا فيه من سائق السمر والفاكهة ، وانصرفوا بقلوبهم الى الصوت العذب والانشاد الرائق ، وظلوا يستعيدون الغناء حتى لاح خيوط الفجر فى الأفق ، فانصرفوا الى دورهم وهم سكارى نشوة ما طربوا فى تلك الليلة الفريدة

انس عبد الرحمن منذ تلك الليلة ان غلامه « عبيد بن سريج » يملك موهبة خارقة فى الصوت وحسن الأداء والانشاد ، ولم تكن تعرف من قبل الا أنه كان يغنى نائحا على الأموات والقتلى ودموع الثاكلات

فى تلك الليلة ، وبعد أن انصرف ضيوفه ، اعتزم عبد الرحمن أمرا فى شأن خادمه الموهوب اعتزم ان يخلى سبيله ، ويعفيه من خدمته ، وأن يسرحه باحسان بعد أن يعتقه تقربا الى صاحب الجود والعطاء وواهب الرزق لمن يشاء

وقبل أن تغيب شمس اليوم الجديد ، تهيأ « عبيد » لمبارحة دار عبد الرحمن ، ووقف بين يديه يستمع الى نصحه ووصيته له أن يلجأ الى أئمة الغناء فى مكة وفى المدينة ، ليأخذ عنهم أصوله وفروعه وقواعده ، وان يكرم موهبته التى أودعها الله فى صوته ، وأن يصونها من كل غث وهوان

وانكب عبيد على رداء سيده يقبله ويسح بديه لثما ويبللهما بدموع حرى على عشرة طويلة سنوات طويلة فى دار سيده لم يكن يحس الا انه واحد من أهل الدار ، حمل نصيبه من سراء العيش وضرائه مثلما حملوا سواء بسواء

ثم أقبلت « هند » على صوت النحيب ، ورأت « عبيدا » يجمع حوائجه ويعد جهازه للرحيل ، فترقرقت فى عينيها دمعتان ساختان ، كأنما ترثى السنين التى قضاها بينهم بين الضحكات وسر الدعابات وبذل روحه طواعية وبرا بهم ووفاء بوفاء

وقام عبد الرحمن يودع غلامه الى خارج الدار ، ثم أعطاه كتابا الى ابن اخيه « عطاء » ليدبر له سكنا ومقاما فى احدى دوره العديدة بشعاب مكة ، ولم ينس أن يدس فى يده كيسا أودعه كل ما يملك من مال قليل

لم ينم « عبيد » و نعقل فى تلك الليلة الفاصلة من حياته ظل ساهر الطرف يقلب وجوه الرأى فى أيامه المقبلة بعد أن أعتقه سيده ووهب له حريته والتصرف فى شأن نفسه بما يهوى لقد احس انه ولد من جديد ، وانه يحيا حياة جديدة يملكها حقا ولا يملكها غيره وحدثته نفسه وحدتها انه اليوم قد شارف على الخامسة والعشرين من عمره ، ولا يحذق عملا غير ترديد الشعر بصوت يطرب له الاسماع والقلوب ، لكن صنعة الغناء لا يشتغل بها الا اهون الناس شأنا وهم الموالى والأرقاء والعبيد ، وهو بعد ، لم يعد واحدا من طوائفهم منذ اعتقه عبد الرحمن

ثم غلبه النوم مع اولى خيوط الشمس التى تسللت الى صحن الدار فافاق فى الضحى فقام واغتسل وارتدى أحسن ثيابه ، وغادر داره قاصدا الى دار « سعيد بن مسجح » شيخ المغنين فى مكة الذى انقطع الى تعليم الغناء ، بعد ان وهن عظمه واقعده الشيخوخة

ومنذ اللحظــة الأولى التى أصاخت فيها اذن « ابن مسجح » لغنــاء الفتى الناسيء ولأدائه المصقول ، أدرك أنه يملك موهبة نادرة قل أن تجود بمثلها القدر

اقبل شيخ الغناء فى مكة على « عبيد بن سريج » يبسط له الأوزان ، ويحدد توقيع كل صوت ، ويسميه من عصاره تجربته العريضــة فى ألوان الغنــاء العربى والفــارسى وصنوف التطريب ، حتى جاء وقت غــدا فيــه « ابن مسجح » لايطيق أن يبتعــد عنه تلميذه الجــديد لحظة ما بالليل او بالنهار ، بعد ان أحس أنه يوشك أن يفارق الدنيا ، وان لابد لفنه أن يبقى ويمتد فى غناء « ابن سريج » و « معبد » و « الغريض » وهم صفوة مــن أخذوا عنه ورددوا عليه

ويوم ان دخل « ابن سريج » على شيخه ذات ليلة يحمل تحت ابطــه « عودا » مما يتغنى على انغامه الاعاجم الوافدون فى موسم الحج ، رقت عيناه فى دهشة يمرح فيهــا الفرح وهو يشهد طموح تلميذه يمتــد يوما بعد يوم

لم يكن « ابن مسجح » فى الحقيقة يعرف الضرب بالعود ، لكنه رأى لابن سريج أن يتعلم الضرب على اوتاره حتى حذق العزف عليه من تلقــاء نفسه دون مرشد سوى أذنه الواعية وسمع أستاذه الكبير

وانقضت ثلاثة اعوام على «عبيد بن سريج» ، وهو فى صحبة « ابن مسجح » يلقى خلالهــا اصول الصنعة الحلوة ، وينهل من عــذب موردها الرائق ، ووقف على مفــاتيح الغنــاء وطرائقه ، حتى بلغ ما حــذقه وأتقنه نماية وستين صوتا واسلوبا

ومات « سعيد بن مسجح » شيخ الغنا فى مكه ، فبكاه « عبيد بن سريج » بالدموع السفاح ، واخذ ينوح عليه حتى ابكى الناس معه

يقولون ما ابكاك والمــال عامر   عليك وضاحى الجلد منك كبير
فقلت لهم لا تســألونى وانظروا   الى الطــرب النزاع كيف يكون

انقطع « ابن سريج » في داره اياما حزينة لازمه خلالها طيف استاذه الراحل في كل صوت أو نغم ، ولم يجد من وسيلة يوفي بها حق الولاء له ، سوى ان يعكف على عوده وأوتاره ليردد ما يعلمه على يديه مرة تلو مرة ، ثم يحس بوقوف الناس على باب داره يتراحمون بالمناكب ليسمعوا الروح والقلب والاسماع ، فيقوم « ابن سريج » الى فراشه لعل الكرى يسلمه الى الرقاد فيهجع قلبه الحزين البائس

وجاء امير شعراء الغزل « عمر بن ابي ربيعة » لما بلغه لزومه البيت ، وطلب اليه ان يخرج الى الناس ليدب احزانه في لقائهم وسمرهم فما من شيء احفظ لجميل « ابن مسجح » سوى استماع الناس الى غنائه بعد ان حملت الرياح عذوبة صوته وحسن ادائه الى كل بقعة في الحجاز ، وجاوزتها الى بلاد الشام ومصر والعراق

وصحبه « ابن أبي ربيعة » معه لأداء فريضة الحج مع حشمه وغلمانه ومواليه ، وقد اريدوا أحسن لباس وزينة ، فوصلوا الى « منى » في صفار الشمس ، واحب عمر ان يتلهى في عشيته ، فاسار له ابن سريج على كثيب قريب ينظرون منه مرور الحاج ولا يرونهم ، حتى اذا أكلوا وشربوا ، امسك ابن سريج بدفه وأخذ ينقر عليه قبل ان يطلق صوته بالغناء ، ولم يلبث ان سأل عمر ماذا تحب ان اغني من شعرك يا سيدي ؟ قال عمر وهو يتمايل طربا على نقر الدف غني ما قلته في كلثوم

اعتدل ابن سريج في جلسته ، وتهيأ للغناء ، وأخذت أصابعه الحاذقة تنقر الدف حتى كاد أن ينطق واندفع يغني

كفى حزنا أن تجمع الدار شملنا	وامسى قريبا لا أزورك كلما
دعى الحسن تردد صالا مع الذي	به قيل أو داوى حواه المكتما
ومن كان لا يعدو هواه لسانه	فقد حل في قلبي هواك وخيما
وليس بتزويق اللسان وصوغه	ولكنه قد خالط اللحم والدما

حمل الهواء غناء ابن سريج الى كل واقف وسائر ومقيم ، فاندفعوا الى اقرب موضع من الغناء الشجى ، كما سمعه قوافل الحجيج من متعددة ومفرقة ، فبرك الرحال رواحلهم وساروا الى مصدر الصوت كأن مسا من الجن قد اصابهم ، وجعل يركب بعضهم بعضا من نشوة ما طربوا ، حتى انفلتت شعاب الجبل الى ما يشبه الحفل الصاخب

واقبل رجل مهيب الهيئة من بعيد يصيح ويستغفر الله ويستعيذ به من الشيطان حتى وقف على اعلى موقع من المكبس ، وادرك أن المغنى هو ابن سريج الذى فتن الناس فقال يا ابن سريج ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء قد قطعت والله على الحاج وجهتهم ،والوقت قد ضاق فاتق الله وقم عنهم

واستحى ابن سريج من الرجل وسكت عن الغناء حتى استانف الحاج مسيرهم ، فقام من مجلس ابن ابى ربيعه ، وعاد الى داره مسدودا من تكاثر الناس عليه ، موقنا بانه بلغ شأوا بعيدا فى العزف والتطريب

منذ تلك الليلة ، ذاع صيت « ابن سريج » وجاوزت شهرته شهرة « معبد » و « الغريض » وأضرابهما ولما انتهى موسم الحج ، اقبل الناس عليه من المدينة والطائف وبجد يستمعون الى غنائه ويعقدون حلقات الدراسة والمفاصلة بينه وبين معاصريه من أئمة الغناء ، ولكل منهم عشاق ومريدون

واخذت دعواته للغناء تتقاطر عليه ، فيوما هو فى المدينة ، ويوما فى الطائف ، ويوما يشد الرحال الى عاصمة الخلافة فى دمشق ، ليغنى فى قصورها ابتهاجا بقدوم امير او زواج وزير

ودخل بيوت سادات مكة ، كما افترش رمال البادية بين مضارب الأعراب ، وغنى للرجال والنساء أرق اشعار «ابن ابى ربيعة» و «الأحوص» و « جرير » وقيس بن ذريح ، وكان غناؤه لأى شاعر من معاصريه ، سببا

لأن تطير شهرة الشاعر وتجاوز ارض الحجاز الى العراق ومصر وبلاد الشام وكل بقعة ينطق فيها لسان عربي

واحب « الوليد بن عبد الملك » خليفة المسلمين ان يشتري صغرى جواريه « حبابة » مغنية بعد ان لمس في صوتها غنة طرب مسكر ، فبعث بها الى ابن سريج في مكة لتأخذ عنه الغناء ، فامضت في صحبته أربعة اعوام غدت بعدها من ابرع مغنيات عصرها واحذقهن تطريبا

وذهب معها ابن سريج الى دمشق ليقدمها الى امير المؤمنين مغنية ثابتة القدم ، سليمة الأداء صقيلة الصوت ، حسنة التهذيب

كانت ليلة مشهودة في تاريخ دمشق ، يوم ان شدت « حبابة » بين يدي الوليد ، ثم اعقبتها « سلامة » ثم ابن سريج من بعدهما حتى لاح نور الفجر

جلس الخليفة في صدر المكان ومن حوله خدمه وغلمانه يحملون صحاف الفاكهة واطباق اللوز والفستق ، بينما اضواء القناديل تنعكس متكسرة على الستر والطنافس والنقوش فتبدو المنظر سبع بهاء ورواء

تقدم ابن سريج الى جنب متكيء الخليفة على جنبة طرزتها اسلاك الذهب والفضة ، فالتمس منه ان يأذن له ببعض الغناء قبل ان تبدأ «حبابة» التي بهتت الموقف وروعته ، وكان الوليد في جفنة الأمر يبغي ان يستمع الى غناء من تحدث الركبان بابتعاث صنعته ، فلم يلبث ان ابتسم ثم قال
— لا عليك يا ابن سريج نسمع منك ثم نسمع حبابة

وتراجع ابن سريج الى مجلسه الاول واشار الى حبابة ان تمسك عودها لتصاحبه في العزف دون ان تغني ، بينما احتضن عوده يغمز زناره ثم اصلحها وحبابة تفعل مثلما تفعل حتى تساوت طبقات الأوتار في العودين ثم تدفقت النغمات تنساب من عودي المغني الراسخ وتلميذته المليحة وطلا

يعرفان معا دون غناء حتى اوشكت جدران قصر الخليفة ان تتمايل بدورها طربا ، واندفع ابن سريج يغنى من شعر « ابى صخر الهذلى »

أما والذى ابكى واضحك والذى — أمات وأحيى والذى أمره الأمر
لقد تركتنى احسد الوحش ان ارى — اليفين منها لا يروعهما الذعر
فيا هجر ليلى قد بلغت بى المدى — وزدت على ما لم يكن بلغ الهجر
ويا حبها زدنى جوى كل ليلة — ويا سلوة الأيام موعدك الحشر
هجرتك حتى قيل لا يعرف الهوى — وزرتك حتى قيل ليس له صبر
عجبت لسعى الدهر بينى وبينها — فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
اذا لم يكن بين الخليلين ردة — سوى ذكر شىء قد مضى درس الذكر
وانى لتعرونى لذكراك هزة — كما انتفض العصفور بلله القطر
هل الوجد الا ان قلبى لو دنا — من الجمر قيد الرمح لا حترق الجمر

ولما فرغ ابن سريج من غنائه ، زايل الوقار جميع من فى المجلس ، فتكاثروا حوله يطلبون المزيد من الغناء الباهر ، بينما الخليفة يلحظ الحال فى حبور بعد ان بلغ الطرب بالنفوس مداه ، وظل ابن سريج صامتا حتى اشار الوليد الى حبابة ان تغنى ثم قال فقد احدث والله يا ابن سريج وصدق حديث الناس عنك

ثم قامت « حبابة » وتقدمت الى حيث مجلس الوليد ، وانحنت بين يديه تلثم رداءه ثم قالت ادام الله عز أمير المؤمنين وجمل بالسعد ايامه ، ما اظننى ابلغ شأو امير الغناء فى مكة فلتأذن مولاى بالانشاد ان شاء ، لعلى أصادف بعض ما صادف ابن سريج

ابتسم الوليد فى وجه جاريته مشجعا ثم قال فسنسمع يا حبابة غناءك ثم نقول فيه رأينا

وجلست حبابة الى جانب ابن سريج وحركت أوتار عودها واخذت بعمرها في بطء ولين اول الأمر ، ثم جرت أصابعها على الأوتار بعد ذلك في نسق بديع اهتزت له قلوب الحاضرين قبل اسماعهم ، واندفعت تغني أبيات « الهذلي » بلحن آخر لا يقل في روعته عن لحن أستاذها الراسخ ، فاذا بالخليفة يترك جلسته ويزحف الى اقرب مكان من جاريته كأنما يبغي ان يأكل الغناء بدلا من سماعه

وأخذ الوليد يستعيد غناء « حبابة » مرة بعد مرة حتى ارتوى القوم من عذب ما سمعوا ، ثم جاءت « سلامة » من داخل القصر لتشارك بدورها في هذه الليلة البهيجة

وامضت ساعات الليل في طرب موصول حتى أوشك الفجر ان يطلع ، فنام الخليفة ، وانفض عقد المجلس السعيد وما زال النغم الحلو يسري في جوانب القصر

وعاد ابن سريج الى مكة وفي راحلته عطاء الخليفة من كساء وزاد ومال يكفيه بقية العمر

وعكف في مكة ما بقي من عمره يرطب اجوا ها ومحافلها ومجالسها بالعذب من صنعه الذي ، وانتقل غناؤه واسلوبه الى كل دار ومكان ، واخذ منه كبار المغنين قبل صغارهم ، حتى رسخت قواعد مدرسته في الغناء المكي الذي ساد على كل ما دونه من غناء

ويوم حضرته الوفاة في خلافة « يزيد بن عبد الملك » دخلت عليه ابنته « جداء » والدمع يترقرق في عينيها ، وحين نظر اليها بكى لبكائها ثم قال ان من اكبر همي انت يا جداء ، واخشى ان تضيعي من بعدي

فالب حيداء لا برع با أبى ولا بحف فما عيب سيبا الا وابا أعيه
قال ابى سريح وطىف ابتسامة حلوه برف على سعسه هاب بعص ما بعسه
واندفعت ابىة الىمان المحصر بعى صوبا وراء صوب وهو مصع البها
بم قال الحمد لله فد اصب ما فى بعسى وهوس على أمرك اسمعسى
سعرا للهدلى يا حىداء

احدب « حىداء » ىسدو باول سب مما كان ابوها بعيه لىعسه ، وقىل
أن باحدها حمىه العباء ، لاحب منها البعابه الى وحه ابىها الباسم فرابه بحود
باحر بعس ولحى



"زاهد وخليفة ..."

افل نجم بنى امية واطلمت سماء خلافتهم بمقتل « مروان بن محمد » الخليفة الاموى الثالث عشر والأخير على ارباض مصر فى عام ١٣٢ للهجرة، انقضت بذلك ايام خلافتهم التى دامت قرابة قرن من الزمان

ومهما قيل من خير او سوء فى خلافة بنى امية ، وماتناولته أحاديث الرواة وأقلام المؤرخين ، فقد كانت خلافة عربية اصيلة المضمون والهدف وكاد ان يكون مذهبها السياسى العرب للعرب وبالعرب

ولقد عاصرت المتاعب طريق بنى امية وزرعت على حافتيه الأشــواك والمحن منذ أول خلفائهم ، معاوية بن ابى سفيان ، حتى لفظت هذه الخلافة آخر أنفاسها بمقتل مروان بن محمد

نعم منذ اليوم الأول لخلافة معاوية ، اكتنفت الأحقاد والضغائن نفوس الطالبيين ومن ورائهم الشيعة والخوارج ، ورأى معاوية نفسه مدفوعا لمصارعة اكثر من عدو فى اكثر من جبهة وميدان ، واحس المسلمون انهم يوشكون ان يشرفوا سيفا واحزابا تتطاحن على الملك وتناطح على السلطان، زرارا انقسموا على مفترق طرق كثيرة يميلون الى هذا الفريق حينا ، أو يسعون ذلك الحزب حينا آخر ، حتى وشك ان يصير الدين والحفاظ عليه امرا يهون الى جانب الحظوة بالملك والاستئثار بالسلطان

ولولا ان « معاوية » كان يملك رصيدا ضخما من الحلم والذكاء والأناة ، ولولا انه كان يملك طول باع وحسن سياسة ، لما قدر لبنى أمية ان يطول امدهم حتى قاربت مائة عام اتسعت على مدارها فتوحات المسلمين.

فانفسحت فى المشرق حتى جاوزت خراسان وبلاد السند وبلغت مشارف الصين ، وامتدت فى الغرب حتى لامست شطآن أسبانيا

على ان مكمن الخطر الذى لم يفطن اليه بنو امية ولم يحسبوا له حسابا أو يلقوا اليه انتباها ، انما كان مخبوءا فى لفائف تلك الدعوة الجديدة التى نبتت فى بيت بنى العباس ، بان تولى امراؤه زمام خلافة المسلمين بعد ان تقوض حكم بنى امية الذى بدا الفساد يدب فى بنائه منذ مات « عمر ابن عبد العزيز » وتولى الخلافة من بعده ، يزيد بن عبد الملك عام ١٠١ للهجـــرة

ولقد كان طبيعيا ان ينحرف حكم بنى أمية منذ اللحظة الأولى التى اسلموا انفسهم فيها لسلطان الشهوات ومفاتن الدنيا وزينتها ، ومنذ اتخذوا لسكناهم الدور الباهرة والقصور الفاخرة ، ومنذ عزلوا انفسهم عن جماهير المسلمين خلف جدران كسيت بصحائف الفضة ورقائق الذهب ، ومنذ استعملوا الحجاب يقفون بأبوابهم يأذنون لهذا النفر بالمثول ويمنعون ذلك النفر من الدخول

وكان طبيعيا كذلك ان يتزعزع سلطان الدين وتخصيصه فى نفوس المسلمين وهم يشهدون خلفاءهم يتخذون دمشق عاصمة للخلافة بديلا عن مكة والمدينة مع مالهما فى قلوب المسلمين من قداسة لا تهن او تهون

وعلى كر الأعوام ، تتراخى حرص كثير من الخلفــاء على دينهم مثلما يتراخى الحبل المشدود بين الطاعة والمعصية ، فلا تلبث العيون ان ترتع فيما يسمعه المسلمون ويشهدونه من ســلوك الامــويين الذين اســتبدلوا فى مجالسهم ، القيان والجوارى والغلمان ، بالعلماء والفقهاء وذوى الفضـــل واتخذوا منهم سمارا وندماء لهم فى مراحهم وغدواتهم ، ومن ثم اصـــبح المسلمون وامسوا يرنون الى بزوغ فجر جديد

وحملت الرياح من خراسان دعوة بنى العباس وبيعة « ابى العباس عبد الله » خليفة للمسلمين ، الى العراق ومصر والشام ، ودخل الى الكوفة

أبو العباس اول خليفة عباسي في الثالث عشر من شهر ربيع الاول لعام ١٣٢ للهجرة ، واتجه الى المسجد فصلى بالناس ، ثم خطب فيهم بعد ان حمد الله واثنى عليه ، وافتخر بقرابته لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، ثم ذكر الخلفاء الراشدين واثنى عليهم ، ونعى على بني حرب وبني مروان اثرتهم وظلمهم وقال

« واني لأرجو الا ياتيكم الجور من حيث اتاكم الخير ، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح ، وما توفيقنا اهل البيت الا بالله يا أهل الكوفة انتم محل محبتنا ومنزل مودتنا . انتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثنكم تحامل اهل الجور عليكم حتى ادركتم زمننا ، وأتاكم الله بدولتنا فأنتم اسعد الناس بنا واكرمهم علينا ، وقد زدتكم في اعطياتكم مائة درهم ، فأنا السفاح المبيح والثائر المتيح »

اصبح « السفاح » خلافته بالقبض على الأمويين ومطاردتهم اينما رحلوا او اقاموا ، واعمل السيوف في رقابهم ، وصادر أموالهم دون محاكمة او مساءلة ، ولم تكن مداد صفحات حكمه الا من دماء بني امية وكل من تشيع لهم أو تجرى بذكرهم لسانه كانت شهوة الانتقام من بني امية عارمة وملتهبة طوال خلافة السفاح ، واعانه على تقلب جمرها كلما خمدت، عماه « عبد الله بن علي » و « داود بن علي » ثم مات بالانبار في شهر ذي الحجة لعام ١٣٦ للهجرة .

وبويع بالخلافة لأخي السفاح « ابي جعفر عبد الله » ولم يعد هنالك من خوف على خلافة العباسيين بعد ان بادت دولة الامويين ، ولم يبق منهم بقية يخشى لها باس او يدخر لها حساب .

اصبح « ابو جعفر المنصور » وامسى ذات يوم ليجد نفسه خليفة للمسلمين واميرا على ملك عريض ودين تضرب سهامه في اغلب قارات الأرض وجاءته بعوث قسطنطين الخامس ملك الروم وشارلمان ملك فرنسا

يحطبون وده ، ويتبادلون الهدايا والمواثيق ليرعى كل ملك حقوق جيرانه ويفتح بلاده ليعيش الناس فيها أو فيهالك فى وئام وسلام

والحق ان « ابا جعفر عبد الله — المنصور » يعد مفخــرة فى جبين الدولة العباسية ، وهو المؤسس الحقيقى لهذه الدولة العظيمة ، اقام لهـا شامخ البنيان على ركائز رصينة من اخلاقيات الاسلام وتعاليم دينه وثقافته العميقة ، كما كان يجلس فى سابقه المبكر الى حلقات الفقهاء والمحدثين ، ويغترف من ينابيع فضلهم وعلمهم ، وهو حينما صار خليفة للمسلمين ،ارتكز فى سياسته على ما وعاه قلبـه وما أشربت به روحه من خشية الله فيما سر أو يعلن .

كما رأى أن يكف عن قتال بنى أمية بعد أن كفاه ابو العباس طوال سنوات خلافته الأربع مؤونة القضاء على شوكتهم ، فأصبح لاهم يشـغل « المنصور » منذ تولى الخلافة ، الا تثبيت دعائمها واعلاء منارابها والحفاظ على ملكها ، ولو دفعه ذلك الى ان يسـتعين بغير العرب الخلـص ، على نقيض ما حرص عليه بنو أمية من ايثار العرب

وبنى المنصور مدينة « بغداد » لتكون حاضرة الخلافة العباسـية ، ولتغدو من بعد ذلك كعبة القصاد من ممالك الشرق والغرب ، وانفق على تشييدها ثمانية عشر الف الف دينار ، ثم حشد اليها العلماء والفقهاء من كل بلد واقليم ، فأمها الناس افواجا ، فلم تزل تتعاظم وتزداد عمـرانها حتى غدت عروس الدنيا وسيدة البلاد ومهد الحضارة الاسلامية ، واربى قطانها على مليون من الأنفس يتعاطون شئون التجارة والعلـم والتثقيف وكل ما يتصل بالحياة التى انسحب عليها اسباب الرغد والأمان والعيش الرخى

وهدأت انفاس المنصور بعد ان فرغ من بناء بغداد ، وتطامن فؤاده بعد ان تخلص ممن كان يخشى بأسهم من المقربين اليه ، وكان على قائمتهم عمه « عبد الله بن على » و « ابو مسلم الخراسانى » صاحب دعوة العباسيين فى خراسـان

ثم صفا الجو لأبي جعفر المنصور ، وانقشعت من سماء خلافته غيوم كثيرة ، واذا ما يلتفت حواليه وجد ملك المسلمين قد انفسحت رقعته وامتدت سطوته ، واذا بحضارة الاسلام تغزو الممالك والأمصار قبل ان تغـزوها الجيوش ..

كان شغله في صدر النهار أن يجلس في ايوانه يستطلع أخبار الولايات ويناقش اصفياءه وجلسـاءه فيمن يوليه هذا الثغر او من يعـزله عن تلك الولاية ، ثم ينظر في امر السبل وطرق القوافل والتجارة وشئون الخراج والنفقات ومصلحة معاش المسلمين ، حتى اذا انقضى النهار جلس الى اهل بيته يلاعب الصغير ويداعب الكبير ويقضي حوائجهم في غير اسراف .

وفي الليل بعد ان يصلي العشاء الآخرة ، يجلس الى سماره من ذوي الفضل والعلم يشاورهم وينظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والأطراف والآفاق ، فاذا مضى ثلث الليل قام الى فراشه وانصرف سماره ، فاذا مضى الثلث الثاني من الليل ، نهض من نومه فأسبغ وضوء ه وصف محرابه حتى يطلع الفجر ، ثم يخرج فيصلي بالناس

وتمضي الأيام والأعوام بالمنصور وهو يعمل لدنياه كأنه يعيش ابدا ، ولآخرته كأنه يموت غدا ، فيملأ خزائن الدولة بالأمـوال ، ويـرفه عيش المسلمين ، ويشيد المدن والقصور والمساجد ودور العلم ، ويجعل من بغداد حاضرة العباسيين كعبة اخرى يحج اليها الوفود من أطراف الدنيا وآفاق الأرض لتنتهب من رغد الحياة اوفره ، ولتنهل من علوم الاسلام وأخلاقياته وحضارته ، ثم تذيعه بعد ذلك على العالمين

ولا ينسى المنصور آخرته ، فيحرص ما استطاع سبيلا في كل عام الى حج بيت الله

حتى كان ذلك الموسم من الحج للعـام الثامن والأربعين بعـد المائة للهجرة ..

تجهز المنصور للسفر الى مكه بصحبه اهل بيته بعد ان وكل الى ولده وولى عهد الخلافه « محمد المهدى » ان يرعى الامور فى غيبته بالحق والموعظة الحسنه

وحطت قافله الخليفه على بطحاء مكه بعد سفر شاق من بغداد الى أرض الحجاز ، ثم ضربت الفساطيط فى نظام وفور وشكل مهيب ، وتميز فسطاط الخليفه بضخامته وعلو رايته الخلافه فوق هامته

ومنذ اللحظه الأولى لوصول قافله المنصور ، اقبلت وفود العلماء والفقهاء والشعراء من مكه والمدينه تسلم على خليفة المسلمين وتمضى فى مجلسه اوقاتا طيبة يتنافسون امور الدين والدنيا ، ويتضرعون الى الله ان يهدى الناس الى الخير ، وان يعينهم على البر وصالح الأعمال

وسأل المنصور ذات مساء عن « ابى حنيفة النعمان » الذى افتقده منذ وصولهم ، فأجاب الربيع الحاجب انه قد جاء معنا الى مكة وهو لا يغادر الحرم ، وان شاء امير المؤمنين بعثنا فى طلبه قال المنصور بل ندعوه لشأنه ، فما حاجته الينا وقد جئنا نسعى جميعا رضا الله ومغفرته .

وامتد السماط لعشاء المنصور وخاصته وصحبه ، وقبل ان تمتد الى الطعام ايدى الآكلين ، دخل الربيع يعلن وقوف ابى حنيفه بالباب ، فأذن الخليفة بدخوله على الفور .

ولم يصب ابو حنيفة من طعام المنصور شيئا ، وانتحى مجلسا قريبا منه يتمتم بالأدعيه ويتلو من كتاب الله آيات بينات .

ولما فرغ المنصور من طعامه ، اقبل على ابى حنيفة يسأله عن حال المسلمين فى مكه ثم تدور حدث شائق بين الجالسين وسمع المنصور فى شغف الى احاديث العلماء فى مجلسه ، وتوجه ابو حنيفة الى المنصور يسأله عن تتمة حديثه الذى بداه فى بغداد ليلة السفر ، عن أركان الملك

لبى لا تصح الا بها ، فتبسم المنصور ويقول جزى الله ابا حنيفة خيرا ان اثار هذه القصة ، فما احوجنى وانا امس على هذا الملك العريض الى ان تكون على بابى اربعة نفر لا تكون على بابى أعف منهم قال ابو حنيفة ومن هم هؤلاء الأربعة يا امير المومنين ؟

سكت المنصور لحظة بلاف جلالها انظار من فى المجلس على صفحة وجهه ثم قال هؤلاء الأربعة هم اركان الملك ولا تصلح الا بهم كما ان السرير لا تصلح الا باربعةقوائم ، اذا نقصت واحده تداعى السريرثم تهاوى أما احد الأربعه فقاضي لا تاخذه فى الله لومه لائم . والثانى صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى ، والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية فانى عن ظلمها غنى ، اما الرابع

وهنا سكت المنصور برهة ثم عض على اصبعه ثلاث مرات وقال آه من هذا الرابع .

قال ابو حنيفة من هو هذا الرابع يا امير المؤمنين ؟ قال المنصور وهو يتفرس فى وجه محدثيه الرابع صاحب بريد يكتب عن هؤلاء على صحة .
وانفض مجلس المنصور فى تلك الليلة ، واراد ابو حنيفة ان ينصرف الى شانه ، فاشار اليه الخليفة ان يمضى معه ليصحبه فى الطواف حول الكعبه

ولما ان شارفا ساحة المسجد الحرام ، بهرهما المشهد الفريد لآلاف الضارعين والساجدين والطائفين بالكعبة ، بينما القناديل من حولهم تكاد تحيل الليل نهارا

وسمعا دعاء الحجيج الى رب الكعبه والناس ان يحفظ لهم دينا اخرجهم من الظلمات الى النور ، وهو نعد ، خير دين انزل للناس

رأى المنصور الناس من كل بلد ولون وجنس بلا فرق بينهم فى هذا المشهد المهيب حيث لا يتقدم غنى على فقير ولا قوى على ضعيف ، وانما الكل

سواسه يذكرون الله بقلوب خاشعة ، ويرفعون الى عليائه أكف الضراعة ان يقبل توبتهم ، وأن تقبل عثرتهم ، وأن يهديهم الى صراط مستقيم

وبينما المنصور وأبو حنيفة يطوفان بالكعبة ، رأى المنصور رجلا فى ركن قريب يتطلع الى السماء ولم يلبث أن سمعه يقول فى ضراعة « اللهم انى أشكو اليك ظهور البغى والفساد فى الأرض ، وما يحول بين الحق واهله من الطمع »

خرج المنصور من دعاء الرجل ، فلم يكمل طوافه ، وخرج فجلس فى ناحية من المسجد مهموما ، ولما أقبل الربيع حاجبه ، طلب اليه ان يذهب الى صاحب الدعاء ويدعوه الى خليفة المسلمين ، ثم أشار الى أبى حنيفه ان يجلس قريبا منه ليسمع معه حديث صاحب الدعاء .

امتثل الربيع لأمر الخليفه ، وذهب الى حيث يجلس الرجل وابتدره قائلا سمعك امير المؤمنين تشكو الى الله ظهور البغى والفساد فى الأرض، وقد اراد اعزه الله ، ان يراك وان يسمع منك . قال الرجل فى هدوء رصين قد كنت أشكو الى الله وليس الى امير المؤمنين ادهب عنى اصلحك الله

ادرك الربيع ان الرجل واحد من الزهاد ، وان الجدل معه لا طائل من ورائه فلم ير الا ان يسره ويستهويه فقال أراك تخاطب الله ولا تخشى لقاءه، فحرى بك الا تهاب لقاء عبد من عباده الصالحين هنا وهم معى الى لقـاء أمير المؤمنين فلقاؤه حظوه للسعداء

وهنا طلب الرجل الزاهد من حاجب الخليفه ان يمهله حتى يصـلى ركعتين ، ثم يذهب معه الى حيث يجلس خليفة المسلمين دون ان ينتبه اليه أحـد .

وسلم الرجل على الخليفة ، وهنأه بسلامه الوصـول الى ارض الله المقدسة ثم سكت عن الكلام ، فدعاه المنصور الى الجلوس قبالته فجلس قال المنصور فى وداعة سمعتك فى طوافى تشكو الى الله ظهـور البغى

والفساد فى الأرض ، وما يحول بين الحق واهله من الطمع . فوالله لقد حشوت مسامعي بما اوجعني

قال الرجل : قد شكوت الى الله وحده ، ولم اشك الى المنصور

قال المنصور : اعلم ذلك ، وما من سلطان لى عليك فى هذا الحرم ، انما احسب أن تعين لي بعض ما تراه من البغي والفساد لعلنا نقدر على الا يكون فى ايامنا بغي أو فساد . قال الرجل وهو يرفع عينيه الى وجه المنصور : يا أمير المؤمنين ، ان امنتني على نفسي انبأتك بالامور من أصولها ، والا احتجبت منك واقتصرت على نفسي ففيها لي شاغل

قال المنصور على مسمع من الربيع ومن ابى حنيفة : انت آمن على نفسك فقل ما تحب ان تقوله ولا تبق شيئا مما تحدثك به نفسك

سكت الرجل برهة كانما يستجمع شتات افكاره ويرتبها ثم قال :

ان الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين ما ظهر من البغي والفساد لهو انت يا خليفة المسلمين

تعجب المنصور من جرأة الرجل ، وكادت دواعيه ان تزايله ، لكنه كظم ما يثور فى اعماقه ثم قال : ويحك . كيف يدخلني الطمع بينما ذهب الدنيا فى يدي ، رقصتها في شمالي ، وعندي من الطعام والشراب حلوه وحامضه ؟

اجاب الرجل على الفور : وهل دخل احد من الطمع ما دخلك ؟ ان الله تبارك وتعالى استرعاك المسلمين واموالهم . فاغفلت امورهم واهتممت بجمع اموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر وأبوابا من الحديد وحجبة معهم السلاح ، ثم سجنت نفسك فيها عنهم ، وبعثت عمالك في جباية الأموال وجمعها ، وقويتهم بالرجال والسلاح ، وامرت بالا يدخل عليك من الناس الا فلان وفلان نفر سميتهم ، ولم تأمر بايصال المظلوم

ولا الملهوف ولا الجائع العارى ولا الضعيف الفقير ، مع أن لا أحـد من المسلمين الا وله فى هذا المال حق معلوم

وهنا تململ الربيع الحاجب وهم بالوقوف ، لكن المنصور صوب اليه نظرات صارمة عاد على اثرها الى جلسته الأولى ، ثم اتجه بعد ذلك بكل جوارحه الى الرجل وهو يقول انى مصغ اليك يا أخى فهات كل ما عندك

استأنف الرجل حديثه بعد ان جدح الربيع بنظرة نافذة

واعلم يا أمير المؤمنين ان هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك . وآثرتهم على رعيتك ، وامرت الا يحجبوا عنك ، لما رأوك تجبى الأموال وتجمعها ولا تقسمها قالوا عنك . هذا قد خان الله فما بالنا لا نخونه وقد سخر لنا نفسه ؟ ثم انهم ائتمروا فيما بينهم الا يصل اليك من علم اخبار الناس الا ما أرادوه واذا ما خرج لك عامل يخالف أمرهم ويمضى بين الرعية بالحق والعدل ، عابوه عندك حتى يسقط منزلته ويصغر قدره فلما انتشر ذلك عنك وعن بطانتك والمقربين اليك بلا حجاب ، اعظمهم الناس وهابوهم فكان عمالك اول من صانعهم بالهدايا والأموال ليقووا بها على ظلم رعيتك ثم فعل ذلك من غير بطانتك ، ذوو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا به ظلم من هم دونهم ، فامتلأت بلاد الله بالطمع بغيا وفسادا ، وصار هؤلاء القـوم شركاءك فى سلطانك وانت غافل .

وسكت الرجل برهة ونكس رأسه الى الأرض ، ثم رفع عينيه بعد الى وجه المنصور فلمح فى عينيه دموعا توشك ان تنساب على صفحة وجهه الا ان الخليفة تمالك نفسه واندفع يقول فى صوت متحشرج ويحيى من نفسى ومن حساب الآخرة . ولكنك تعلم يا اخى وتعلم المسلمون فى اقطار الأرض انى اجلس الى الناس فى كل يوم لاسمع مظالمهم ثم انفذ كلمة الحـق بينهم فما الذى تنكره علينا فى ذلك ، ولكل امرىء قلب ولسان يتحدثان عنه فى السر وفى العلانية ؟

اسم الرجل الزاهد ، واحس المنصور بمرارة يحسها الرجل فى صدره ، هى افصح من كل كلام ، ولم يلبث ان قال اصلح الله أمير المؤمنين وحمله بالعافية الذى يعلمه انه اذا جاءك مظلم ، حيل بينه وبين دخول مدينتك ، فان اراد رفع قصته اليك سد طهورك ، وحدثك قد نهيت عن ذلك وارفض للناس رجلا ينظر فى مظالمهم حتى اذا بلغ بطانتك خبره ، سألوا صاحب المظالم الا يرفع مظلمته اليك اذا كان المشكو منه واحدا من بطانتك ان من يلوذ بهم ، ولا يزال المظلوم يختلف الى صاحب المظالم الذى افسده يلوذ به ويشكو ويستغيث وهو يدفعه ويعتل عليه واذا ما افلح المظلوم فى ان يلقاك وان يصرخ بين يديك ساكنا ضرب ضربا مبرحا ليكون نكالا لغيره وانت تنظر ولا تنكر الا لبث امير المؤمنين وخليفة المسلمين يعلم قصة ملك الصين فى هذا المقام

وسكت الرجل لحظة ريثما يأذن المنصور بالحديث عن ملك الصين ، ثم رسل المنصور نظره الى ساحة الحرم ، فرأى اسراب الحمام الأبيض تقف على كتاف المصلين تارة ، وتحط على ظهور الساجدين تارة اخرى ، بينما عمد اكثر الحجيج الى النوم ساعة من الليل ريثما تؤذن لصلاة الفجر

راح المنصور حقا ان يصغى الى حديث الرجل عن ملك الصين فقال ليس احب الينا من سماع حديثك عن ذلك الملك الذى يعيش هنالك فى أقصى المشرق لعل فى ذلك عظة وعبرة

قال الرجل قد كنت يا امير المؤمنين اسافر الى بلاد الصين فقدمتها مرة وقد اصيب ملكها بسمعه ، فبكى يوما بكاء شديدا فحثه جلساؤه على الصبر فقال لست ابكى للبلية النازلة بى ولكنى ابكى لمظلوم بالباب يصرخ ولا اسمع صوته اما اذ ذهب سمعى فان بصرى لم يذهب نادوا فى الناس على كل مظلم ان يرتدى ثوبا احمر وكان هذا الملك يركب الفيل طرفى نهاره وينظر فى الناس ، ثم يدعو اليه كل من يلبس ثوبا احمر ويحقق بنفسه فى ظلامته

فهذا يا امير المؤمنين مسرك بالله علت رأفه بالمسركين سح بفسه، وانت مؤمن بالله ومن أهل بيت بيه لا بعلب رافتك بالمسلمين على سح بفسك ، فان كنت تجمع المال لولدك ، فقد أراك الله عبرا فى الطفل سقط من بطن امه وماله على الأرض مال ، ولست بالذى بعطى ، بل الله يعطى من سشاء ما سشاء • وان قلت انما احمع المال لأسيد السلطان ، فقد اراك الله عبرا فى بنى امية ما أغنى عنهم مالهم وما جمعوا من الذهب والفضة ، وما اعدوا من الرجال والسلاح حتى اراد الله بهم وبكم ما أراد

لم يقو المنصور على أن يوقف مسيل الدموع من عينيه المحصلتين ، وأخذ ينسح فى صمت ويمسح عبراته على حين أن أبا حنيفة والربيع ينظران الى الرجل تارة ، والى المنصور تارة اخرى ، حتى اذا ما هدأت نفس المنصور واستعاد حأسه ، قال لمحدثه ليتنى لم أخلق وبحك كيف احتال لنفسى حتى يخف حسابى سيابى يوم الحساب ؟

قال الرجل بجب على سائل المنصور يا أمير المؤمنين ، ان للناس أعلاما وأئمة يفزعون اليهم فى دينهم ويرضون بهم ، فاجعلهم بطانتك يرشدوك ، وشاورهم فى أمرك يصدقوك ويسددوك •

قال المنصور قد بعثت اليهم فهربوا منى وباعدوا عنى •

قال الرجل خافوا ان تحملهم على طريقك ، ولكن عليك ان تفتح بابك ، وان تسهل حجابك، وان تنصر المظلوم وتقمع الظالم ، وأن تأخذ الفىء والصدقات مما حل وطاب ، وانا الضامن عنهم ان يأتوك ويساعدوك على صلاح الأمة

وانطلق صوت المؤذن لصلاة الفجر فقام الناس واصطفوا للصلاة ، ثم عاد المنصور الى فسطاطه والوجوم يكسو وجهه والهم يجثم على صدره لم ينم لحظة ، وظل يتقلب على فراشه نهبا لأفكاره المقلقة حتى طلع الصباح •

اعترم المنصور فى نفسه أمرا   اعترم ان يستعمل دلك الرجل الراهد أمينا على الحراج ويسون مظالم الناس ، ولو اعصب فى دلك كثيرا ممن ساورهم او يعهد اليهم مصالح المسلمين •

وحين دخل اليه الربيع الحاجب ، طلب اليه ان يبعث بمن يحضر رجل الأمس ، ولم يكاشف المنصور حاجبه بما يعترم •

وذهب الربيع فى صحبة علمائه وخدمه يبحثون عن الرجل الذى طلبه خليفة المسلمين

عادوا طيلة النهار يروحون ويجيئون فى كل بقعة من مكة ، وأخــذوا يسألون الحجيج عن الرجل ، ويتفرسون فى الوجوه ، ولكنهم لم يعثروا للرجل الراهد على أثر



"رجل من البادية ..."

انقسمت غيوم المتاعب من سماء « عبد الملك بن مروان » الخليفة الاموى الخامس ، وصفا له الجو في جميع الأمصار ، واجتمعت عليه الكلمة في كافة ارجاء الامبراطورية الاسلامية ، بعد ان خلص من اكبر مناوئيه ، وقتل « عبد الله بن الزبير » في مكة عام ٧٣ للهجرة .

ومن قبل مقتل « ابن الزبير » الذي استمرت خلافته بارض الحجاز تسع سنوات ، اريقت دماء كثير من المسلمين خصوصا ارض العراق في حروب الشيعة والخوارج وفي سبيل القضاء على رجل الفتنة الكبير « المختار الثقفي »

كانت حروبا ضارية استنفدت الجهد الكبير والمال الموفور ولولا ان وقف « الحجاج بن يوسف الثقفي » الى جانب عبد الملك وبذل اقصى ما يملك من دهاء وسعة حيلته وشدة بلاء ، لما قدر لحكم بني أمية ان يمتد ويطول الى ما يقرب من مائة عام

نعم . كان « الحجاج » العربي المتوقد الذهن يقف من وراء خطط القتال يرسم لقادته وعماله اسلوب الحفاظ على الاسلام ، ويوجههم الى مواقع الانتصار والقضاء على المتربصين بالدولة الاسلامية الفتية ، ولا يألو جهدا في اعداد الجيوش من خيرة المحاربين وامدادهم بأدوات الحرب والعتاد ، رغم تعدد الجبهات وبعد الشقة بينها وبين قواعد الامداد

في ارض الجزيرة والعراق ، كانت رحى الحرب دائرة على اشدها بين « عبد الله بن زياد » الذي ندبه الخليفة للقضاء على « زفر بن الحارث »

وسلىماں س صرد كىير السيعه و « المحىار س عبيد الىمعى » رحل العسه الكىىر الدى قىل فى حرىه مع مصعب س الرىىر

وفى الححار ، سىر الححاح ىىفسه الى مكه ، ونصرب من حـولها الحصار لىطفر ىعىد الله س الرىىر ، ىم ىصب علىها قدائف المحاىىق ىلا هواده أو رحمه ىاهلها ، وفى الىهاىة ىسىسلم اىں الرىىر وىقىل ىم ىصلب على اىواب المدىىه المقدسه .

وفى الهىد ، ىىدب الححاح القائد العربى الساب « محمد س القاسم » لرد عصاىها واعاده كلمة المسلمىں عليها ، كما ىىدب « فىىه س مسلم » لحرب فارس التى ما اىفكب ىسق عصا الطاعه ، وىقتل عمال الخليفة ، وىمىىع عں اداء الحرىه لىىب مال المسلمىں

كل هده الحروب فى اكىر من حبهة ، انما كاىب امىحاىا عسىرا للعرب ولدىىهم ، وهو حىر دىں اىرل للىاس ، ولم ىكں لىصمد فى هده المعـارك ىحىار هدا المعىر الساق الا اصلب الرحال عرما واسدهم عىره على الاسلام من أصراب عىد الملك س مرواں ووررىه الاول الححاح س ىوسف الىمعى

ومهما عىب على الححاح اىه اراد اں ىسوس الىاس ىالعسف والحور فاں القلب المىصف ىلىمس للرحل اكىر من عدر لهدا المىهح الدموى الدى احىطه الححاح لسياسه ، ىقد كاىب الفىىه حىىىة وسائىكه ىموح ىالمرالى والفىں والىىكىك فى صلاىه المسلمىں ىـوں دىىهم ، ولما ىىقص عليه حتى حلافه عىد الملك الا قراىة ىصف قرں من الرماں

ولو قد ىحح الطالىوں ، أو اىىصرب الىىعه ، او كىىب الحوارح ، او ىرك امر فارس والهىد ، او ىلفرب اى حىهه معادىه ىموقع حدىد ، لصارب الامور فوصى لا رابط لها ولا صابط ، ولما كىب للاموں وللمسلمىں معهم اں ىسود لهم كلمه

احد على الحجاج قسوته وبطشه وولوعه في الـدماء ، وما درى المؤاخذون ان هذه القسوة كانت كفيلة برد المرتدين بالاسلام على اعقابهم واخماد ـسهم الى غير عودة .

ولقد عرف «عبد الملك» كيف يفيد من تدراب «الحجاج» وتسعين بصلابته على معالجة الشدائد ، ولم يلبث ان جزله بن اماربى مكة والمدينة بعد مقتل « ابن الزبير » ووكل اليـه ضبط امور العراق وفارس عام ٧٥ الهجرة حيث لقب آبنذ بامير العراقين

ورضى الحجاج بذلك التكليف من خليفة المسلمين وطابت نفسـه الطموح بهذه الثقة مع ما فى حملها من مشقات جديدة خلفها ويلات الحرب الضروس التى زرعت فى كل بيت مناحة على شهيد ومأسا على فقيد

ودخل الحجاج مدينة الكوفة فى اثنى عشر راكبا من رجاله عـلى النجائب واتجه من فوره الى المسجد ، وصعد المنبر وهو ملثم بعمامة خز حمراء واجتمع عليه الناس وهو ساكت لا ينبس شفتاه بحرف وتعمد الحجاج ان يطيل من سكونه وان يتفرس فى وجوه الناس الذين استبد بهم القلق والتوحش ، وعلى غرة كشف اللثام عن وجهه الصـارم وقال بيت الشعر المشهور

انا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى اضع العمامة تعـرفونى

واخذ يقطر وعيده وتهديده فى اسماع الناس وقرا عليهم كتاب امير المؤمنين ثم غادر المسجد الى داره بعد ان حمل الهواء كل ما نطق به لسانه الى البيوت والأسواق والى كل بقعة فى مدينة الكوفة

ومنذ اللحظة الاولى التى استقر فيها الحجاج بالكوفه اخذ يضبط امور العراق ويولى خلصاء عماله على اماراتها ويطـارد فلول الفتـنة فى الأطراف البعيدة ، ولا ينام فى الليل او يغفو بالنهار الا قليلا

على ان أعظم ما كان ثورى نوم الحجاج وتقض مضجعه ، هى تلك الفتنة التى ما انفك أهل فارس يذكون نارها ويعلون جمرها بين الحـين والحين ليستعيدوا على نقيضها سالف دينهم وأمجاد الأكاسرة

وبينا الحجاج سروح معض اسام الصيف الصيفة فى قاعة تطل على بستان داره ومن حوله قادة رايه ومستشاريه وطلمه الغروب الرماديه ترجف حسنا على الكون والكائنات ، دخل الحاجب يعلن وقوف رجل بالباب يبغى لقاء أمير العراقين ، فسأل الحجاج حاجبه فى غلظه ومن الرجل ، واى ريح هوجاء القت به فى مثل هذه الساعه ؟

اجاب الحاجب على الفور يقول انه من ذوى قربى الامير واسمه حسان بن مسعود الثقفى

غاب الحجاج فى سرحه طويلا ترك حاجبه واقفا يرقب همس شفتيه وعاد بخياله القهقرى الى بنى ثقيف الى اهله وناسـه واقربائه ومدارج طفولته هناك فى بطاح مكه ، وسأل نفسه اين هو اليوم منهم بعد ان ضربت بينهم السنون والاحداث وفرقت فرسهم عن بعدهم ، وطوحت بمصيـر الدانى والقاصى ، وشغلت الكسر والصغير بما يجرى فى أرض الجـزيرة العربية ناره ، او بما يدور فى أمصار بحصح يومئذ لكلمة العرب والمسلمين ، وقد كانت من قبل دولا وممالك يحلق حولها خيال العرب ، ويتحدث بشأنها الرواه ، وينسج من تاريخها الملاحم والأساطير

وطال سرحه الحجاج ، ونبه احد جلسائه الى وقوف الضيف خارج الدار فغمغم بكلام غير مسموع ، وأفاق الحجاج فاعاد السؤال من جديد عن اسم الواقف بالباب ، واجاب الحاجب انه حسان الثقفى ابن عم الأمير وتعجب الحجاج فى نفسه من مجيئه اليه هنا فى الكوفه بأرض العراق ، وهو الذى لم يبرح البادية يوما ولم يفارق مضاربه او يرضى معيشة الحضر بديلا عن الحياة فى الصحراء

اوما أمير العراقين ان بدخل الرحل ، ثم مصت لحظات ظلت الابصار خلالها معلقه بباب القاعة الفسيحة ، ولم يلبسوا ان سمعوا صوت القادم يسبق دخوله ويتساءل عن مكان الحجاج وحيسما لمح ضيفه يخب في ردائه البدوي قام اليه باسطا ذراعيه يستقبله ويعانقه في حفاوة وتحير له مجلسا الى حواره ، ويأخذ في سؤاله عن حاله وحال قومه واخبارهم ، ويعرج من طرف خفي متسائلا عن أي ريح طيبه حملته على ترك باديته والقدوم اليه على بعد الشقه وطول المسير

واجاب حسان ضاحكا انى حقا رجل من البادية وربما لا ارضى بن عيشها عوضا أو بديلا ، غير انى علمت منذ حين انك تملك هذا الحصر بعد ان ترك الاماره على مكه والمدينه ثم حدثتني النفس ذات ليله ان أشد الرحال اليك لأقف بنفسي على ما وصلت اليه من علو القدر، ولأرى بعيني عظيم مكانتك ، ولافخر بين قومي بما أنجبت بنيف

وراق للحجاج حديث ابن عمه فقال مرحى مرحى يا حسان ومرحبا بك في دارنا ، انما الملك يؤتيه الله من يشاء ولقد اراد امير المؤمنين « عبد الملك » حفظه الله ان أكون واحدا من خدام ملكه ، فامتثلت لما أمر به

اردف حسان يخ باحجاج يبدو ان القوم اصدقوني القول ترى صحيح انك عدوت تلقب بأمير العراقين ؟

اخذ الحجاج يضحك من سذاجه حسان ولحظ رفاقه انبساط اساريره من حديث ابن البادية ولقد احب الحجاج حقا ان يسترسل فيه ليريح ذهنه المكدود لولا خطوره ما كان يتناوله قبل حضور ضيفه ، فصفق لحاجبه وامره ان يعمل على راحة ابن عمه بعد عناء السفر الطويل ، وعرض عليه ان يقوم الى داخل الدار ليصيب حظا من الراحة والطعام

لكن حسان سكر لمصفه امر العراقى ، واحب ان بمى مع القوم ربما يفرعون من سوف حديهم ، ثم بعرد بعد دلك بصحبة ابن عمه الحجاح

واستانف الحجاح حواره مع قادته في سوف فارس يستعرضون اسماء من سعث بهم الأمر الى الولايات العاصمة ، ويتداولون الراى فى صلاته هدا ودهاء دالد من اسداء الرحال ، وفى النهاية بعث ولاية « اصفهان » التى حذلت كل من يولى امرها من قبل

ويهر حديث القوم حسان وشد فضوله واساهه فهدا حديث عن حديث البادية والمضارب والرعى والابل والمطر انه حديث عن مصائر الناس ، وعن ولاه يعتلون كراسى الحكم ويقصون الرواب ليعسوا فى رغد ووافر نعمة

ويحدث حسان نفسه انه ابن عم الحجاح امر العراقى الذى يولى الحكام ويبسط لهم فى أسباب الحياه الرحبة ، برى الا يحق له ان يتولى هو الآحر احدى امارات فارس مثل الآخرين ؟

وفجاه يقتحم حسان الحديث على الحجاح وصحبه قائلا ايها الأمير ، أرالد بولى اقرانك وصحبك ، فلم لا يولينى بعض هدا الخصر ؟

نظر الحجاح مستغربا الى ابن عمه ولم يلبث ان ابتسم في وجهه وقال هؤلاء يكسون ويحسبون ، وانت لا تكتب ولا تحسب

وهنا اشتد الغضب بحسان فقال محتدا بلى انى والله لأحسب منهم حسبا ، وأكتب منهم يدا يا حجاح

وكأنما التقطها الحجاح سانحه يروح بها عن نفسه اثقال ما يصطخب في عقله وقلبه ، واستعدت ان يشاكس ابن عمه مثلما كان يأتيه معه فى

طفولته النعده ، فاصطنع الحد والوقار ولم يلبث ان قال ان كنت كما ترعم يا حسان فبين لنا كيف نقسم ثلاثه دراهم بين اربعة رجال ،

وهنا اخذ حسان يتملى في وجه الحجاج تاره ، وفي وجوه رفقائه تاره اخرى وهو لا يفتا يردد ثلاثة دراهم بين اربعة رجال ثلاثة دراهم بين اربعة رجال ثلاثة بين اربعه لكل واحد منهم درهم ويبقى رابعهم بلا شيء عجب والله ! كم الرجال يا حجاج ؟

وكاد الحجاج يفلت منه وقاره وهو يلحظ حيره رجل البادية ، واحس بموجة ضحك عاتيه توشك أن تعصف به فقال وهو يداري فمه بيده اربعة رجال وثلاثة دراهم يا حسان

سكت حسان برهه والقوم ينظرون جوابه ثم قال نعم بها الامر قد وقفت على الحساب والحسبة لكل واحد منهم درهم ، واما اعطي الرابع درهما من عندي

ومد يده الى ثوبه واخرج درهما قدمه الى الحجاج وهو يقول مغتاظا والله ما رايت كاليوم زورا مثل حساب هؤلا الحضريين

والى هنا لم يجد الحجاج مفرا من اطلاق ضحكته المكبوتة من عقاله واندفع بقهقه في دوي تجاوبت في القاعة اصداؤه ، كما اخذ صحبه يضحكون من خلفه حتى طفرت الدموع من عيونهم ، بينما حسان ينظر اليهم مشدوها في اول الامر ثم عصفت به الغضب واخذ يقترب من الحجاج ويقول والله يهز ناس عملك يا حجاج ، كانك بذلك تهزأ من نفسك ايضا لعلني احطأت بالقدوم الذي هنا في هذا الحضر وتجشمت مشقه الرحيل وما كان اغناني عن كل ذلك الهراء غدا افارق دارك وموقع سلطانك يا حجاج واحذر اهلك هالك بمطالبك وسوء خلقك

واستمص حسان وافقا والسخط برعس بدنه وغادر القاعة ، فصفق الحجاج لحاجبه واشار اليه لحول دون خروج صيفه فى هذه الساعه من الليل

ثم آن لمجلس الحجاج ان ينفض ، فغادر الرجال دار أمير العراقين على ميعاد جديد فى ضحى الغد ، لاختيار وال يصلح لاماره « اصفهان »

* * *

خلا الحجاج الى نفسه قبل ان يبعث فى استدعاء حسان من داخل الدار ، وأخذ يسترجع مادار فى القاعة قبل أن يفارقه سماروه ، ويرقب فى ذهنه فكره احد يحيل فيها وجوه الراى هذه الاماره العاصيه « اصفهان » التى يجتمع فيها دهاقين الفرس وكبراؤهم وعمداء تجارهم واربابؤهم ، وكلما اتاهم وال اعجزوه ودحروه ، ماذا لو رمىهم ابن عمى « حسان » يداورهم ويعجمهم فعساه ينجح فيما لم ينجح فيه من سبقوه ؟ ومضى الحجاج يحاور عقله ويداوره لقد لمح فى عينى حسان ومضة ذكاء فطرى وحمقا يبعع اكثر مما يضر

وصفق الحجاج لحاجبه وطلب اليه احضار طعام العشاء له ولضيفه ، وان يستدعي ابن عمه من داخل الدار ودخل حسان صامتا وظل واقفا ، وقام اليه الحجاج واخذ يقبل رأسه ويعانقه ، ثم أمسك بيده واجلسه الى جواره واخذ يضاحكه مغاشا ثم قال

-- ترى ماذا تقول يا حسان لو توليت اماره « اصفهان » من قبل ابن عمك الحجاج الثقفى امير العراقين ، والخراج مكسور على اهلها منذ ثلاث سنوات ؟

قال حسان مبتدا وفى عصب مستور اراك عدت الى هذرك ياحجاج انى مغادرك الى البادية فى صبحة الغد

وجاء الخدم بالطعام ، وفى خلال تناوله ادرك حسان ان الحجاج جاد في هذه المرة ، وانه سيجربه فى امر لم تتح له من قبل ، وانه عـلى نفس سلفا ، بان ذكاءه وسعة حيلته ستكونان له خير عون ونصير

* * *

خرجت قافلة « حسان بن مسعود الثقفى » أمير اصفهان الجديد الى غايتها فى صبيحة الغد ، بعد ان زودها الحجاج بـكتاب للخراج واعوان للأمير الى جانب كتيبة من اشداء الرجال راكبى الأفراس أمرهم الحجاج بان يكونوا لحسان اطوع له من طرف البنان

وسارت القافلة اياما اخترقت خلالها ولاية بعد ولاية فى ارض فارس، وكان حسان ينزل مكرما على امير كل ولاية يصل اليها ، بعد ان ينشر كتاب امير العراقين الذى وجهه اليهم ليهبوا الى نجدته اذا دعت الحال

واشار دليل القافلة لحسان على مشارف « اصفهان » قبل ان تدخلها القافلة ، وطوح حسان ببصره اليها ولم يكن قرص الشمس الارجوانى قد غاب فى الظلمة بعد ، فراى قبابا عالية كانها اذرع تمتد الى السماء وقـد انعكست عليها خيوط الشمس المذهبة فبدت متعة للعين والناظرين

وكلما اوغلت القافلة فى سـيرها الحثيث الى مدخل المدينة ، لاحت للعيان الاشجار اليانعة الخضراء تحيط بقصور الأثرياء وتـسـير وورودها وازهارها الى ما تحظى به القوم من عيش رخى وحياة باسمة

امضى حسان اول ليلة له باصفهان فى دار الامارة ساهر الطرف على وجوه الراى فى هذا المأزق الذى أوقع نفسه فيه هذه الولاية الفا سية واهلها من غير العرب ، وقد اعجزوا من قبل كل وال عربى وفد اليها ترى ماذا يستطيع ان يفعله وهو لم يمرس من قبل بمثل هذه الأمور ؟

وفى الصباح وفد على دار الاماره وجوه المدنة ورؤســاء طوائفها سلمون على الوالى الجديد ويقبلون يده ، ويعلنون خضوعهم لكل ما يامر به خليفه المسلمين وعماله من العرب الميامين

ثم تقدم « صفوان » عميد تجار البسط والطنافس والرياش لتحية الوالى الجديد لبسط تحت قدميه بساط الحكم من افخر ما انتجته ايدى عمال اصفهان ، ويلتمس قبول هديه المدينه من الطنافس والرياش واوانى الفضه والبللور التى تليق بمقام عامل امير المؤمنين

واستم حسان رائحه الرشوه فى حديث « صفوان » الذى يقدمه متلما تمى بسطه وسجاجيده الفاخره ، والرشوه من قبل ومن بعد ، سبيل معبد الى قلوب الحكام والولاة وحتى الملوك ، يصل الراشون فى نهـايته الى تحقيق بغيتهم حقا كان أو باطلا !!

وانتفضت عروق الغضب فى جسد حسان وهو يشهد الرجل الفارسى ينشر امام الملأ بساطا زاهيا فى لون العقيق رقشته زخارف ونقوش تاخذ بالألباب ، ونشر الى خدمه ان يتقدموا الى حيث يجلس الوالى ويضعوا بين يديه ما حويه الصناديق من فاخر التحف والأثاث

قال حسان فى صوت جهير يرتعد حده وغضبا احمل بساطك وتحفك ايها الفارسى فلا حاجة لنا بها انا لم نعتد المشى على المخمل ، وبساطنا هناك فى بطاح مكه صنعه الله لنا من رمال صحرانا الصفراء وهو ممتد الى غير نهاية ولقد ولانى الحجاج عليكم لأحمد فتنكم واقمع عصيانكم ، ولا تغررنى ان اقومكم بالسيف اذا عدتم الى سالف عهدكم ، وهذى جيوشنا ترى العين اولها ولا تدرك آخرها يا كاتب الخراج

وجاء كاتب الخراج مهرولا يوقف الى جوار حسان تمسك باوراقه فقال حسان يسأله كم خراج اصفهان المكسور على اهلها ؟ واجاب كاتب

الحراج انه عسرة آلاف دسار فى كل عام وهو مكسور عليهم مىد ىلاىة اعوام ، فيكون المطلوب لبيت مال المسلمين ىلاثين الف دىنار بالتمام والكمال

وقال حسان للقوم هدا هو مطلوبى يا أهل اصفهان تحبون ان احصل عليه بحد السيف ، او بالقول الحسن منكم ورضاكم ؟

وارتفعت همهمات القوم وتطايرت صيحاتهم وما لبث صفوان ان اقترب من الوالى وهو يقول

— ايها الأمير الموصول بالسعد قدومه نحب ان تسمع حججا اراء تقصيرنا عن ادا الحراج طوال ثلاث سنوات ، وافعل بعد ذلك ما انت قاض

ولاىت عروق الغضب فى حسان واخد يتفرس فى وجه صفوان ويكاد يحرق ضلوعه بنظراته الحادة ثم قال نسمع اليك يا فارسي ولكن اياك والمراوغة قال صفوان وهو يرفع كلتا يديه الى راسه مبالغة فى توقير الامير اصلح الله اميرنا وحمله بواسع الحلم ، ان اهل اصفهان قد نزلت بهم شدة أكلت حرثهم ونسلهم ، ولم تبق فيها دار الا احدث من خراب الله بعدو قريتها ونلتمس من الأمير مهلة نسعها حلمه لنؤدي ما علينا من الحراج المكسور

ولم يجب حسان على الفور ، وظل يتفرس فى وجه « صفوان » ثم اسعفه ذكاؤه الفطرى ان يقول للفارسي الذى يتحدث بلسان اصفهان عاجما عوده

— قد قبلنا حجتك يا صفوان ونترك لك ان تحدد بنفسك مهلة يرتضيها اهل اصفهان يؤدون بعد انقضائها خراجهم المكسور

وسرت همهمة سرور فى جموع الناس بعد ان حسبوا زعيمهم نادرا على كسر حدة الأمير ، ثم يتطلعون بعد ذلك من وعدهم مثلما اقبلوا من قبل قال صفوان للأمير وهو يدعو له بالعمر المديد

— نرضى بستة اشهر ايها الامير نودى بعدها مطلوبك كاملا غير منقوص

وهلل أهل اصفهان لهذا الكسب ، واخذوا يدعون للأمير ان يسير طلال عدله على مدى الأيام والأعوام

ثم لاحت بسمة بشر على سحنى حسان قبل ان يقول

-- وبثه ابشر أخرى من قبل امير المؤمنين « عبد الملك بن مروان » حفظه الله ورعاه

وبعد ذلك تعالت صيحات الاستحسان والاكبار لمحامد امير اصفهان ، والله وحده يعلم ما يضمرون !

ولما ان هدات موجات السرور وخفت الهمهمات ، اخترقت الاسماع صيحات الأمير يقول صمتا يا قوم اما وقد هزكم الفرح بعد نوال ما املتم فيه ، فانى اريد عشرة ضمان يتعهدون بالكتابة على صك يمضى تحت يدى ، للوفاء بالوعد في موعده

وقال حسان لكاتب الخراج ان يجهز الصك ليوقع عليه عشرة من وجهاء المدينة اداء ثلاثين الف دينار في نهاية عام يبدأ من اليوم

وتقدم الضمان العشرة وكان اولهم « صفوان » عميد تجار البسط والطنافس ولما ان فرغ كل منهم من وضع اسمه على الصك ، اشار حسان الى رجال شرطته فطوقوهم حتى لا يبرح واحد منهم مكانه ثم قال للقوم المشدوهين

- قد رضيتم ورضينا بمهلة ضاعفناها لكم ، وسيبقى ضمانكم العشرة ضيوفا على خليفة المسلمين في دمشق طوال تمام المهلة ثم نعيدهم الى اصفهان بعد اقتضائها واداء المكسور عليكم من الخراج

وادخل الصمان العسره دار الامارة ، وباتوا ليلتهم يضربون كفا بكف ويعجبون لذلك الوالي الوافد من البادية الذى غلبهم على امرهم وقهر مكرهم باسد منه !

ويطاير الهمس فى المدينة ، وأصبح مصير الصمان العسره حديث القوم فى كل دار ومتجر وناد ، فمن قائل انهم سيرحلون فى صبيحة الغد مع القافلة الذاهبة الى دمشق ، وقائل بان امير اصفهان سيقطع رءوسهم ليبعث بها الى الحجاج فى الكوفة ، ومن

ولم ينم اصفهان فى تلك الليلة خرج الرجال والنساء يجمعون قطع الذهب من كل دار ومن كل برى وقصر ، ولم يطلع فجر اليوم الجديد حتى تجمع الناس امام دار الاماره يحملون اكياس الذهب والفضه

واطل حسان من نافذه غرفته فراى الجموع واقفه امام داره يرجون فتح الباب لابلاغ الأمير ان الخراج المكسور سيؤديه اليوم رلس بعد عام !

وافرج امير اصفهان عن صفوه العسرة ، واستقبلهم اهل المدينه كان دهرا انقضى على فراقهم وغيبتهم ، او كانما قد عادوا من سفر بعيد

وقبل ان تغيب قرص الشمس عن اصفهان فى ذلك اليوم ، كانت هنالك قافلة تحث الخطى لتغادر المدينة فى طريقها الى الكوفة حيث ينتظرها هنالك امير العراقين



" طائر عن بغداد "

فرغ الشيخ من صلاة العشاء ، ثم عاد الى جلسته الأولى ، واسند راسه الى جدار الغرفة ، واخذ يتمتم بادعيته مثلما تتمم بعد كل صلاة ، وكانت الغرفه قد اظلمت تماما الا من بصيص ضئيل يتسلل من خصاص النافذه التى تطل على السوق الكبيرة فى مدينه الكوفه

ولم يحس الشيخ بدخول خادمه « مسعود » يحمل القنديل بعد ان أشعل فتيله ، ثم يضعه داخل كوته فى الركن القريب ، فيرسل مع ضوئه الأصفر الخافت ، ظلال الأشياء المبعثره على الارض هنا وهناك ، بينما ظل « مسعود » يروح ويجيء وراءه وهو يعيد ترتيب أثاث الغرفة ليهيىء لسيده فراش نومه ، بعد ان يحضر له طعام العشاء

ولما ان فرغ مسعود من مهمته ، وقف بين يدى الشيخ يعرض عليه ما لديه من بقايا طعام يمكن ان يقدمه اليه فى هذه الليله لم يرد الشيخ على خادمه ، بل نظر فى وجهه ، واخذ يحدق فيه طويلا حتى استراب الخادم فى نظرات سيده الذى لم يلبث ان قال

ــ احب يا مسعود أن تناول معا ــ على غير المألوف ــ طعام العشا فلذى حدث احب ان انهيه اليك

قال مسعود بعد أن هدا خاطره بابى أنت وامى ياسيدى ، قد فرغت منذ لحظه من عشائى وما أقدر ان أريد شيئا اما ماتحب ان تقوله لى فكلى ياسيدى آذان صاغيه ، وستجدنى، كما عهدت ، اطوع لك من بنانك

عاد الشيخ الىصمته لحظه ، واخذ يدير عينيه فىارجا الغرفه الواسعة وفى النهايه اراح نظراته على وجه غلامه ثم قال

ـ اذن نجلس قرننا منى يامسعود حتى نوفر على رفع صوتى بما لا احب ان يسمعه غيرى وغيرك

وجلس مسعود على الأرض بين يدي الشيخ الذي مد يده النحيلة فوضعها على كتف مسعود ثم قال

ـ احب يا مسعود أن القى وجه ربى يوم الحساب بكفة راجحة من صالح الأعمال تقربنا الى رضائه ولست تجهل يا بنى ما صارت اليه حالى من ذل بعد عز ، وعسر بعد يسر ، وتفرق الأهل والصحب ما بين شرق وغرب ولقد اضحى وجودك معى طلما لنفسى ولك بعد ان نفد مالى ، ولم اعد املك ما أنفقه حتى على نفسى ، فما بالك وانت معى ، وانا مكلف بك أمام الله والناس

اغرورقت عينا مسعود بدموع غزيرة ، اخذ يكفكفها بكمه ثم قال فى ألم وماذا تحب يا سيدى ان افعله ؟

قال الشيخ لست احب ان تفعل شيئا الا ان تضرب فى فجاج الارض معتقا حرا تملك امر نفسك وحياتك ، باحثا عن رزقك فى غير ضحضى بها هى ذى وثيقة عتقك ، قدمها غدا الى قاضى الكوفة مع شهود لك لتصير حرا منذ الغد وهاذان دناران هما كل ما املك بعد أن احتجزت لنفسى مثلهما ، ولا تراجعنى فيما اتزمت عليه امرى ، فلك وسيلتى الى قربى من ملك كل شيء

خرج « مسعود » من دار القضاء فى الكوفة يحمل بين يديه ، وثيقة عتقه ، وأخذ يطويها بعناية بالغة ، ثم اودعها مع حوائجه القليلة ، واتخذ طريقه الى مكان القافلة المسافرة بعد صلاة الظهر الى بغداد

لم يكن قد شاهد بغداد من قبل ، انما ذكرها العذب كان يسرى فى أوصاله كلما ذهب الى سوق الكوفة ليشترى منهـا حاجات سيده كان يسمع الناس يتحدثون عن بغداد مثلما يتحدثون عن المدن المسحورة التى

سيدت فيها قصور احجارها من الذهب والفضة ، وقباب ابنيتها ساطح السحاب وتلتف بها الشمس فى دورانها فاذا هى متوهجة أبدا تخطف بريقها القلوب والأبصار وسمع اهل الكوفة يتحدثون عن صناعة بغداد وتجارتها التى تأتيها فى قوافل البحر تحمل من الطيبات والخيرات ماتزخر به بلاد الشرق والغرب من الحرير والصوف والديباج والبسط والطنافس وألوان الأطعمة والاشربة وصنوف الفاكهة ، وكل ما ينبت فى أرض الله الطيبة

كان حديثا عجبا عن بغداد وما تظلل حياتها من اسباب النعيم وآيات الرغد والهناء ، وما تتيحه لكل من يعيش تحت سمائها من فرص العمل والكسب والحياة الرخية

كانوا يتحدثون عن بر الناس بعضهم لبعض ، وكيف يعيش القوى ضعيفهم والثرى فقيرهم ابتغاء مرضاة الله لم يكن هناك ثراء مجنون ولا فقر همجى يطحن الناس بلا رحمة ، انما كان هناك عدل يقيمه الناس من انفسهم دون أحكام من القضاه والمشرعين ، ولم يكن احد يطمع فيما بين يدى احد آخر ، أو انسان يقطع الطريق على انسان آخر ليسلبه لقمة العيش او يقصيه عن عمله ليأخذ مكانه ، انما كان هناك حق يعلى صوته ويجهر به حتى يصل الى صاحبه

ولم يكن فى بغداد حاضرة العباسيين ارمات فى السكن والمأوى ، ولا صائقات فى الطعام ولوازم الحياه ، انما كانت هناك قواعد وانظمه يحترمها الكبير قبل الصغير والثرى قبل الفقير ، لم يكن فى بغداد اسواق سوداء لأقوات الناس ومساكنهم ، انما كان كل شيء ميسرا للجميع بالحق وبما امر به الاسلام خير دين أنزل للناس

نعم كان عصر « المأمون » آنئذ ، عصرا ساد فيه الرخاء والعدل وحريه الانسان كان عصرا عاشا فى اوج حضارته ، بعد ان فرغ جده « المنصور » من بناء بغداد عام ١٤ للهجره ، لتغدو فى زمن الرشيد رائل

بولى بعده ، عروس السرق وكعبه القصاد من اطراف الأرض يسعون التجارة والرزق والعلم والتثقف وكل شئون الحياه ، بعد أن جمعت فأوعت ، وسملت فسادت

كان عصر رخاء يصب فيه الأموال مدرارا على بغداد ، ولم يكن البذخ والتأنق فى أسباب الحياه مقصورين على الخلفاء والأمراء والخاصة ، بل كانا يتسللان الى اوساط الناس وعامتهم ، ولم يكن مستغربا ان يحمل الرجل بضاعته فوق كتفه ، ويجوب بها احياء بغداد طولا وعرضا ليبيع منها ما يسع ويشتري، ثم يعود فى ظلمةالغروب الى داره فتلقاه جاريته بألوان العشق والوله ، وبعد ان يصيبا عشاءهما على رنات الكاس والقبلات ونغمات الغناء الشجى ، يناما فى حبور ما بقى فى الليل من ساعات حتى يسفر عن وجهه الصباح

لكم كان « مسعود » يحلم فى نومه ويقظته بالذهاب الى بغداد ليقضى فى مغانيها أياما قصارا يثوب بعدها الى بيت سادته فى الكوفه سعيدا بما شهد وسمع ، ثم يصحو من نومه مفزعا على مطارق الحقيقه المره التى يحسبها مع الشيخ الفانى رب الأسره الكبيره التى كانت الى وقت قريب ، اكبر بيوتات الكوفة ثراء ونعمه وخافض عيش

لقد افلس سيده وتعسرت حاله بعد يسار عريض وربه عن ابيه وزاد من كده حتى بات مثار تندر الناس فى كل بقعه بمدينه الكوفه ، ثم نزلت الحادثات بالمحن ، وتفرق ابناء الشيخ فى فجاج الأرض ، بعد ان عرفت للشيخ قافلة له فى بحر الظلمات ، ابتلعت معها اغلب ماكان يتجر فيه ، ولم يعد يملك فى النهاية غير داره الكبيره التى انزوى فى غرفه منها يشفق من القليل الذى بقى له ريثما يأتيه أجله المحتوم

على ان « مسعود » على ما نزل بسيده ، لم ينس تلك السنوات الهانئة التى عاشها بين أرجاء هذه الدار العريقه منذ جلبه صبيا من احد النخاسين ذات يوم ، ويافعا درج مع ابناء سيده يلاعبهم ويداعبونه ، ويطعم ويرتدى

مثلما يطعمون ويريدون ، حتى تغيرت بسادته الحال، ومال بهم الزمان ، فأصبحوا في عسر بعد يسر ، وألمت بهم غيرات الحياة ، والحياة من قبل ومن بعد ، تأخذ وتعطي حينا ، وتأخذ ولا تعطي حينا آخر

وتحدث مسعود نفسه والقافلة بعد السير لتبلغ مشارف بغداد قبل ان تجثم الظلمة ترى ماذا تخبؤه لي القدر في هذه المدينة الكبيرة التي لاأعرف لي فيها اهلا أو صديقا ؟ انني لا احسن عملا ولا حرفة غير خدمة سراة الناس واثرياء القوم ، وانا اليوم حر مثلهم ولايسع لي أن اعود القهقرى مثلمـــا كنت

وهذان الديناران اللذان لاأملك غيرهما ، ترى هل ســيدفعان عنى غوائل الأيام وصروف العيش في هذه المدينـــة التي سموها عروس الشرق وكعبه القصاد من غرب وشرق ؟

ثم لاحت للعين قبـــاب الدور والقصور ومآذن المســـاجد كانها اذرع ممدودة تبتهل الى رب السماء والأرض ان يديم للاسلام عزته وأن يبقى في العالمين كلمته

ولم تلبث القافلة ان حطت ركابها ووضعت اثقالها عـــند أول ابواب بغداد ، فأخذ كل مسافر يجمع حوائجه ثم يأخذ سبيله الى حيث تقصد

ولم يبق في النهاية غير مسعود الذي وقف حائرا لايدرى أين يذهب بعد أن زحفت ظلمة الليل على المدينـــة ، ثم مضت لحظات اصبحت بعـــدها مصابيح الشوارع والحوانيت وقناديل البيوت فانبعثت منهـــا أنوار باهرة اضفت على ليل بغداد حياة تختلف تماما عن حياة النهار

اقترب مسعود من دليل القافلة يسأله عن مكان خان قريب يبيت فيـــه ليلته ريثما يطلع الصباح الجديد ، فابتسم الرجل في وجهه قبل ان يجيبه

ـ أيما سرب نافس وحدث الحانات ف كل شارع وسوق ، وأنصح لك بالنزول ف خان الربانيين الذى يديره ابن عم لى ، سوف لا تأخذ منك كثيرا فهو رجل طيب وساعد الغرباء ، وأنت فيما يبدو تزور بغداد لأول مرة

وسأل « أبو جعفر » نزيله الجديد عن هويته واوراقه ، ثم اثبت اسمه فى دفتر بين يديه ، وذكر سنه التى تجاوزت الخمسة والعشرين عاما ، وانه قدم من الكوفة سعيا الى الرزق ولقمة العيش وبقد مسعود صاحب الخان نصف دينار اجر اقامته بالخان طيلة شهر كامل ، فارشده الرجل الى مكان مبيته فلم يلبث مسعود ان ألقى بجسده المنهوك على الفراش ثم غاب فى نوم ثقيل

غادر مسعود خان ابى جعفر فى صباح أول يوم له فى بغداد وفى ذهنه أن يتجول فى شوارع المدينة الواسعه ويستجلى معالمها ويجوس فى أسواقها لعل الله يفتح له بابا للرزق يعيش من ورائه مثلما يعيش الناس

راى مسعود فى تجواله الدور العامره والقصور الزاهره ينطق بأبلغ ما وصل اليه فن البناء الاسلامى من جمال يأخذ بالأبصار والألباب

رأى البساتين الخضراء اليانعة تلتف بالعمائر والأسيجه لتحمى قطانها من لظى الشمس والهجير فى النهار ، وتبعث مع قدوم الليل ونسيمه انسامه الرحيه لأفنان السحر

وراى مسعود الناس فى بغداد يلتفون فى موده وصفاء ويسأل بعضهم عن بعض ويتبادلون اعذب الحديث عن احوال التجارة وشئون الدين والدنيا ، ويتخلل الأحاديث دعوات صادقة الى رب العباد ان ييسر الأرزاق وأن يرفع عن المسلمين ما يغصه ، وان يهدى الناس الى صراط مستقيم

ثم قادته قدماه الى سوق كبيرة لم يعرف اين أولها والى أين آخرها ، وراى نفسه يسير سيرا فى خضم من البشر يروحون ويجيئون حاملين السلال والحقائب يبعون ويشترون من خيرات الله الوافره التى ازدحمت

بها الحوانيت والمتاجر وارصفة الطريق وانتصف النهار فاشتدت الحركة فى السوق ، وتعالت أصوات المنادين والدلالين تدعو الناس الى التفرج ومشاهدة البضائع ولو لم يرغب احد أن يشترى شيئا ما

واحس مسعود بالجوع ، وتلفت حواليه ، فابصر بائعا جائلا يبيع فطائره محشوه بالزبد والزبيب ، فاشترى منه واحدة اخذ يقضمها ويجيل ناظريه فيما يجرى من حوله

واقبل بائع من بعيد يحمل فوق راسه قفصا بداخله طائر ملون الريش وأخذ ينادى على طائره من يشترى البلبل الصداح ؟ من يشترى سيد الملاح ؟ البلبل الصداح سيد الملاح

واقترب صاحب البلبل من مسعود وهو يقول خذ هدية الى أطفالك واهل بيتك ياسيدى

ولم يبرح البائع مكانه ، فالتفت اليه مسعود ثم قال ليست لى حاجة اليه اعاد البائع فى الحاح أتدرى انه بلبل صادر به جا من الجزائر ؟ قال مسعود وهو يقضم فطيرته لاشان لى بالطيور يانعم

غير أن صاحب البلبل لم ييأس فاخذ يقول طاوعنى يا سيدى انه بلبل نادر وستندم كثيرا اذا لم تحمله الى بيتك بعد قليل سيغنى ويصدح ويدعو لى بالخير انه رخيص الثمن دينارات فقط قال مسعود لاحاجة لى الى بلبلك يانعم قال البائع انظر الى ريشه الزاهى الجميل اسمع ياسيدى صوته العذب ؟ قال مسعود بعد أن راق له حديث البائع لا اسمع بلبلك يغنى يارجل يبدو انك سمعت بكاءه وما احسبه الا جائعا ان صادقا قال البائع ستشترى ياسيدى بعد ان تحمله الى بيتك ثم تطعمه وتسقيه ستدلك ، سترى كيف يهز منقاره وذيله ثم يندفع شاديا باعذب صوت دينارات فقط ثم تملك بلبلا نادرا مكانه قصور الخلفاء والندمان قال مسعود كفانى ان سمعت صوتك انك تبيع كلاما يا رجل أكثر مما تبيع من الطيور اليك عنى اصلحك الله

لكن صاحب البلبل لم ينصرف ، وأنزل قفص الطائر من فوق رأسه واختار مكانا الى جوار مسعود ثم قال : حدثني قلبي ياسيدي أن هذا الطائر من نصيبك ، ولو سمعت نصيحتي، ذهبت به في صبيحة الغد الى قصر «ابراهيم ابن المهدي» عم أمير المؤمنين «المأمون» وسيدفع لك فيه عشرة دنانير . قال مسعود : وماذا يمنعك ان تذهب به اليه فذلك أربح لك من بيعه لي . قال الرجل : لولا ان تحركت الليلة للسفر الى البصرة ، لبقيت الليلة من اجل هذا البلبل النادر . هات دينارين لنربح سوية

ومد مسعود يده الى قفص الطائر الحبيس واحد يتأمل ريشه وعينيه، وقد أوشك أن يصدق كلام البائع ثم قال في النهاية : لست أملك الا دينارا واحدا ياعم . اما أن تأخذه ثمنا لطائرك أو تنصرف عني لشأنك

حدق البائع في وجه مسعود وهو يصطنع الألم ويبدي المرارة ثم قال

— ليت الناس يصدق بعضهم بعضا . هات دينارك وخذ بلبلك الغريد مباركا لك فيه

سار مسعود يحمل طائره حتى بارح ساحة السوق ، فرأى نفسه في فضاء من الأرض ليس فيها بيت ولا قصر ولا دار . رأى حوله ارضا جرداء الا من بعض نبع خضراء وأشجار عالية سامقة متفرقة عن يمين وشمال ، ومن خلفها يدب لعينه الداهلين مياه نهر دجلة تروح وتجيء على صفحته الزوارق والسفن والجرافات تحمل الناس والبضائع الى البصرة والى غيرها من الثغور التي يسقيها النهر الكبير

وانتبه « مسعود » الى ما يحمله بين يديه لما ان تحرك الطائر في القفص واخذ يرفرف في اعياء كأنما يطلب طعاما او شربة ماء ، ساعتها أدرك مسعود ما اقدم عليه من حماقة حينما انفق آخر دينار يملكه ليشتري طائرا حبيسا في قفص لن يجديه اقتناؤه شيئا . ماذا يفعل بهذا الطائر وهو لايملك دارا ولا مالا ؟

وقبل أن يستبد به لوم نفسه ويهيم فى أفكاره السوداء من جـديد ، فتح باب القفص فخرج منه الطائر ثم أطلق جناحيه للريح ، واخـذ مسعود يتابع الطائر بنظراته الذاهلة ، فرآه قد حط فوق أعلى شجرة واخـذ ينشر جناحيه تارة ، ويضمهما تارة أخرى كأنما يبتهج بإطلاقه من القفـد والجوع والظمـا

وجلس « مسعود » فوق نتوء من الأرض يندب حظه العـاثر فى تلك المدينة التى لم يعرف لها اولا من آخر ، ولا يدرى كيف يستقبل غده وهو خالى الوفاض

ثم جاءت منه نظرة الى حيث وقف الطائر ، فابصره يزايل موضعه من فوق الشجرة الباسقة ويهبط الى الأرض ، ويدور حول جذع الشجرة الغليظ حتى اذا ما دار حولها دورة أو دورتين ، اخذ ينبش الأرض بمنقاره الدقيق، ثم يلف ويدور هنا وهناك ، ويعود ليعمل منقاره فى الأرض الرخوة من حول الجذع الغليظ

ولم يدر مسعود ماذا دفعه لأن يرقب طـائره الذى أبى أن يترك تلك النعمة الفاجئة ليلتقط طعامه من مكان آخر مأهول

قام مسعود وبارح جلسته بعد ان ضاقت نفســه بما شهده وما جرى له فى يومه الحافل ، واتجه الى حيث كان الطـائر ينبش بمنقاره ، ولشــد ما عجب حين أبصر اذن جرة من الفخار دفنت فى باطن الأرض ولم يبد منها سوى تلك الأذن

كان الوقت قد جاوز صلاة العصر واخذ قرص الأرجوان يبدا رحلته الدائبة نحو الغروب ، وثمة سحب دكناء تروح وتجىء فى صفحة السماء ، وتلفت مسعود حواليه فراى ذلك الفضاء الواسع لايحتوى انسانا غيره فى هذه الساعة جلس الى جذع الشجرة الغليظ ، وأخـذ يحفر بيديه حول الأذن الظاهرة من الجرة حتى ظهر عنقها الكبير التهبت حماسه فى الحفر من

حولها وسحرب من دهبه مسمات دلك اليوم ، واحدت دقات قلبه نترايد مع حركات يديه السطتين حتى حلصت الحره فاستوى واقفا ثم حدىها نكلتا يديه من حفرتها الرطبة وأسندها على جدع السجر العليط ريثما يسكن جأسه ويسطم دقات قلبه المصطرب

وحين ادن لصلاه المعرب ، كان مسعود يحوس حلال السوارع المردحمة حاملا جرته الثقيله فوق كتفه ويسال كل من يقابله أين سوق الرياس أين حان ابي جعفر

واعلق مسعود باب حجرته ، وقضى الليل كله الا ساعه او ساعتين يحصى الدنانير الدهبية التى امتلات بها الحره ، ولم يدر فى النهايه ان كان قد عد عسره آلاف قطعة او عسرين الف من الدنانير

وفى الصباح ، احد حسه دنانير ، ثم اعاد عطاء الحره كما كان ، واودعها صمن حاجياته القليلة ، ومضى الى خارج الحان ، بعد ان ابلع صاحبه أنه سيرحل الليلة الى الكوفه ويعود منها فى مساء العد

وصل مسعود الى الكوفه ، ودهب من فوره الى دار سيده السيح ، فوجده على حاله التى تركه عليها مند رحيله يسكو الوحده والسقام ، ويعيش فى أيامه اليانعة التى دهبت ولن تعود

وامضيا فى الكوفه ساعه وبعض ساعة ، ثم خرجا معا الى مكان القافلة المسافرة الى بعداد وبدات القافله سيرها الحثيث ، وقد تسرب فيها راحلتان فارهتان اسوى السيح الطيب فوق واحده ، وفى جواره مسعود يركب الأخرى والحدث الصاحك العدب يتداول بينهما حتى لاحت مسارف بعداد من بعيد

ومضت أيام استقبلت بعدها سوق الرياس فى بعداد ، سيحا وقور الهيبة يسحد همة عماله ليفرعوا من وضع اللافتة فوق الارفف الكبيره وفى واجهة المتجر الكبير ، فلم يبق على حلول سهر الصوم الا يوم وليلة

ابتسم « المأمون » بعد ان استمع الى مسعود وهو يقص عليه حكايته مع الطير الحبيس ، ثم بدا له ان يسأله

ــ ولكن خبرني لماذا يطلقون عليك هنا في بغداد « صديق الطيور » وداع بذلك خبرك حتى بلغني ؟

اجاب مسعود وهو لم يزل بين يدي الخليفة

ــ أعز الله أمير المؤمنين وعطر بالرجاء ايامه الزاهرة قد عاهدت الله منذ ظفرت بحريتي الا افعل شرا وان يوفقني لأفعل خيرا ثم عرفت بالحرية فعاهدته مرة أخرى الا ارى طيرا حبيسا الا اطلقته ولو كلفني شراؤه اضعاف ثمنه ، فليس هناك من شيء اثمن لدى المخلوق من حريته ولست انفق يا امير المؤمنين في سبيل ذلك ، الا مما يسره لي صاحب الجود والعطاء وواهب الرزق لمن شاء



صوت من الآخرة

سعس المسلمون الصعداء واستبشروا خيرا بعد وفاه « يزيد بن عبد الملك » وتولية أخيه « هشام بن عبد الملك » خلافة المسلمين في اخريات شهر شعبان من العام الخامس بعد المائة للهجرة

وما من امر تتادى منه المشاعر ونفر منه القلوب مثل امر خليفه يعقد على هامته الآمال ، فاذا به يجهر بمعصيه الله وينقاد لشيطان شهواته ، ويتزلق الى مهاوى الرذائل مستحقا نديمه، وهو بعد ، خير دين انزل للناس ليخرجهم من الظلمات الى النور

ولو قد قدر لبنى اميه ان يمتد الاجل بعمر بن عبد العزيز ، لتبدل الحال غير الحال ، ولتغير وجه التاريخ ، ولسار المسلمون قدما باوسع الخطى ليسودوا على العالمين ، لكن الخليفه الزاهد ، الذى يعد بحق افضل واعف خلفاء بنى أمية ، استأثر به رحمة الله بعد عامين ونصف عام من خلافته امضاها يقضى بالحق ، ويحكم بالعدل ويعلى كلمة الدين ، وينصف الضعيف من القوى ، ولا تاخذه فى الحق لومه لائم

ثم ياتى من بعده خليفه على نقيضه ، فيعمد الى كل صالح فعله «عمر» ويعيده الى ما كان عليه ، ولا يرعى حرمة دينه ، ولا يعمل بسنة نبيه ، ويقبل على الشراب وصحبة الندمان ، ويقضى الوقت فى معاشره القيان

نعم فقد عرف عن « يزيد بن عبد الملك » النقيصة تلو النقيصه حتى غصت قلوب المسلمين بالمراره ، وضاقت نفوسهم بالحنق على ولاه يامرون الناس بالمعروف وينسون انفسهم ومن ثم امسى المسلمون واصبحوا يتشوفون الى بزوغ فجر جديد

ويوم أن مات يزيد، وتولى الخلافه من بعده أخوه «هشام بن عبد الملك» احسب القلوب أن الخليفه الجديد لابد صانع شيئا يبدد به ظلام من سبقه، فقد كان معروفا قبل خلافته، بعفة قلبه ولسانه وفعاله، ولم يشتهر عنه اتيان معصيه او أمر نهى عنه الدين الحنيف

* * *

بويع لهشام وسنه لم تتجاوز العشرين ربيعا يملك معها سلطانا على ملك عريض يمتد شرقا حتى يجاور بلاد السند ويتاخم حدود الصين، ويفسح غربا حتى يلامس شطآن أسبانيا

شبـاب وملك وسلطان وبيت مال تتزايد ما يرد الـيه على كر الأيام والأعوام، طالما كلمه الاسلام وشوكة المسلمين مسجوده أبدا ومن ورائهـا اشداء الرجال الذين لم يلونهم عرض الدنيا وزينها الزائل

والحق ان هشاما لم تفتنه ما وجد عليه الخلافة من أبهة الجاه وعظمـة السلطان، ولم تجره مفاتن الدنيا وزينتها الى ذلك المنزلق الوعر الذى يردى فيه كثير من قادة الشعوب وأئمة الناس، بل عمد منذ أول يوم لخلافته الى رأب الصدع في كيـان الدولة الفتية، فأخذ يتولى عنايته بشئون الاســلام والمسلمين في كل بقعة ينطق فيها لسان عربى ويؤذن في سمائها بذكر الله

منذ اول يوم فى خلافته، بدأ يولى من خلصائه على الولايات والثغور، من حسنت سيرته وعفت نفسه ويداه عن اقتناص ما ليس له، وكان يبـادر بتنحيه كل مسيء الى الدين والى المسلمين، ويحاسبهم الحسـاب العسير، ويصـادر اموالهم وأملاكهم وما جمعوه من كسب حرام، ولم يكن يقبل فى الحق شفاعة قريب او كبير

على ان ايام هشام فى الخلافه لم تكن كلها هدوءا ورغـدا، بل كان اعداء الامبراطورية الاسلامية يتربصون بها الدوائر، ويقفون على أطرافها

العنده كلما احسوا براحا فى صفوف المسلمين ، او أن عن الخليفه فى دمشق فارقها النفطه على هذا الدين الحديد

وبقدر ما عنى هشام بضبط الاحوال الداخليه فى ربوع الامصار القريبة والبعيده على السواء ، بقدر ما كان نشطا شديد النفطة الى تحركات الروم فى الشمال ، وبداس البرك والفرس فى المشرق ، فكان مجلسه ينعقد كل يوم فى قصر الخلافه فى دمشق ، للمشاوره مع خلصائه واعوانه ، ثم يبعث بخيره قواد الجيوش وأشدائهم لرد عدوان الروم والترك فى ارمينيه وقونية وثغور الدوله المشرفه على شواطىء البحار ولقد أبلى من هؤلاء القواد أحسن البلاء ، مسلمه بن عبد الملك أخو الخليفة ، ومروان بن محمد ، وعبد الله ابن عمه ، فكسروا عدوان الروم والترك ، واقتحموا عليهم الحصون والقلاع ، ولقنوهم فى فنون الحرب دروسا سجلها التاريخ بالفخار للعرب فى صفحاته الباقيه على الأيام

كانت الشواتى والصوائف دائمه الحركه والتجوال فى ايام هشام تجوس اطراف الامبراطورية شرقا وغربا وشمالا فى أحسن عده وادق نظام ووفره فى الرجال والعتاد وادوات الحرب وذلك القلاع والحصون بما كفل ردع المعتدين وتأديبهم ، حتى دانت اغلب الدول المتاخمة لكلمه الاسلام والمسلمين ، فليس مثل القوه الوفيره المسانده سلاح يشاد به هيبه الدول والحكام والملوك

كما كانت الاساطيل البحرية التى يملكها المسلمون فى تلك الآونة معده بكل فنالك شديد من السلاح والعتاد وامهر رجال البحر واساليب الغزو عن طريقه ، مما كان ينشر الرعب والهيبه فى بحر الروم والبحر الأبيض وفى غيرهما بفضل امير البحر العربى المظفر آنئذ «عبد الرحمن بن معاويه» الذى دانت له الثغور وأعلنت طاعتها للدوله الاسلامية الصاعده

على ان كلمه المسلمين لم تسد فى تلك الآونه البعيده اعتباطا او بفعل معجزه من القدر ، بل جاءت هذه السياده لأن خليفه المسلمين كان يحس

احيار الرحل الصالح للمنصب المناسب ، وكان يدقق فيمن يعهد اليه بحلائل الأعمال ، بعد ان يبين بكفاءته وكفايته وخشية الله فيما سر أو بطن

نعم ، كان « هشام بن عبد الملك » يضع في المقام الاول من عنايته واهتمامه ، صالح الاسلام وصوالح المسلمين ، وسيون دلك الملك العريض الذي اصبح ذات يوم فوجد نفسه أمينا عليه وموكلا بصونه من كل عبث ، او بروز مسلما زال من قبل ملك وملوك ، وبادت دول وحضارات بسبب بغي الولاة والحكام وانزلاقهم الى شهوات النفس وأهواء القلوب

لم يكن « هشام » يولي هذا العامل تلك الاماره لأنه يمت اليه بسبب أو قرابة أو مصاهرة ، ولم يكن يعزل ذلك الوالي لأن الوشاه وقالة السوء سعوا اليه يصبون السم في سمعه بهتانا وزورا ، بل كان يتحقق بنفسه من صدق كل شائعة او كذبها وما يأتي به بريد الولايات والامصار ، حتى اذا ما تحقق من صدق الاتهام وحدثه ، بادر الى عزل والـيه ومحاكمته بالحق دون ما رفق او هواده ، حتى انه عزل أخاه « مسلمه بن عبـد الملك » عن ولاية ارمينية لما بين له تراخيه في محاربة الترك ودفعهم عن بلاد المسلمين

حقا كانت خلافه هشام بن عبـد الملك التي دامت قرابة عشرين عاما ، قائمه على دعامات رصينه من فضائل الاسلام ، مرتكزه على اصـالة الخلق العربي ، رغم ما اكتنف حكم بني امـيه من العصبيات البغيضة والميل الى الانتقام ممن كان يخالفهم في الراي او يعارضهم في اساليب الحكم

ولكن مهما قيل عن بني امية بخير او بسوء ، فقد كانت خلافه اصيله في مضمونها ، عربيه خالصه في اهدافها ، وكاد ان يكون مذهبهـا السياسي الواضح العرب للعرب وبالعرب

آن لهشام أن يهدأ انفـاسه اللاهثه بعد سنوات عصيبه ظل خلالهـا يسوس امور الخـلافه في الداخل وفي الخارج بما يصون للاسلام هيبتـه وعلو قدره ، ويرعى معاش المسلمين ومصالحهم في الامصار القريبة والبعيده

على السواء ، حتى نمى المسلمون فىأقطار الأرض لو نطول أيام حلافته الرسده ليعموا حلالها بالأمان والرغد والعس الرحى

وفى قصر الحلافة فى دمسق ، كان هسام مصى نهاره ستطلع أحسار الولايات والولاة ، وسطر فى سكاوى الناس وما برد اليه من بريد الثغور ، وما نطلب انفاقه من ست مال المسلمين

حتى كان دلك اليوم من العام العسرين بعد المائة للهجرة

احب الحليفة أن تتحفف من أعباء الحكم اياما يقصيها فى الحلاء بعيدا عن مقر الحكم وسعاياه الثقيلة وترويحا عن النفس ، فامر حاسته وحدمه وعلمانه بحمل ما يلزم من المتاع والحوائج وشئون الصيد والاقامة والطعام وما يلائم برحة الفراع

وهناك فى أطراف دمسق حيث البساتين النصرة وحمائل الورد والأسحار المثمرة بالأزاهر من كل لون وسكل ، حطت قافلة الحليفة فى فضاء ظليل يجرى فيه عدير ماء عدب كأنه الفضه الذائبة

انتحى هسام مكانا رسما نفرغ الحدم من اعداد البساط وتنسيق حواحها ، فراى بقعة الأرض مكسوه بعسب احضر كأنه بساط من المخمل ، ثم أرسل ناظريه يستحلى قسمات الطبيعة الرائعة ، فأبصر زرقة السماء تمتد فى الافق الى غير نهاية ، وثمة سحب بيضاء تتجمع الى جانب بعضها البعض حينا أو تتباعد متمهلة حينا آخر ، كأنها تعانق عناق الأصدقاء او تتبادل قبلات المحبين

وبتسم هسام ، وسهر ملامح وجهه للمنظر الفاتن ، ويظل محدقا فى صفحة السماء ، ثم بعث دهنه فى تصور تلك القوة الحارقة التى أقامت هذه القبة الزرقاء فوق الأرض بلا عمد

ثم هب من حوله نسمات رطبة مندّاه بأرج الزنبق والياسمين ونفاس الزهر العطره أسكرت حواس الحليفة وبعث فى أوصاله دغدغه عذبة سرت

كالسحر فى كيـانه ، فتهيأ له أنه فى روصـه من حاب الحلد وأن صوىا من الآحره ينادنه

دكر ساعتها ربه وحالقه رب السماء والأرص وما بينهما ، فاتتبه الى نفسه وعاد اليها ، ثم لمح عدىر الماء القريب فحطا اليه وحلس على حافته وأحد سوصا نعيدا عن حدمه ، وقام نصلى الى ربه صلاة السكر على نعمائه ، فهو المحمود على سرائه وصرائه

وقصى هسام أناما حلوه واوقاىا هىىة مع سماره وحلصائه وأهل بيىه ، وكانت محالسه الرائعه ىعقد فى الليل لىحىمع فيها العلماء والسعراء والفقهاء وكل من ىطوى بين حسيه فصلا من علم وطلاوة من حدىث

وامتـد السماط دات ليلة مقمره حارح حيام الحليفة ، وأحد الحـدم والعلمان يروحون ويحيئون لتهيئة المكان نعد ان طاب لهسام أن ندعو عاشيته ومحبيه لمساركته طعام العساء فى ىلك الليلة الرائعه ، ىم ىسمرون ما طاب لهم السمر حتى وقت السحر

واحب الحليفة أن يحول سهيه القوم الى صنوف الحدىث مىلما تحرك للطعام والفـاكهة والوان الحلوى التى ىحىد صنعها أهل دمسق فلم يلبث أن قال لصيوفه

ـ ىحب أن ىسمع حدىىا نافعا عن دار الفناء ودار البقاء ومن يحود فى دلك فله الف دىىار نقبضها معحله فى محلسىا هدا

سكت القوم ، واحد كل واحد ىنظر فيما بين ىديه ويعمل فكره ودهىه فى أحسن ما يقال فى هدا المقام على ملأ من الحمع الفاصل ، وتقدم السعراء واحدا أىر الآحر يلقى بين يدى الحليفة أحسن ما حصره حىى اىتهوا من القاء قصائدهم ، دون أن يحطى قصيده واحده باهتمام امير المؤمنين

واحد هسام ىتفرس فى وحوه صـيوفه ، فلمح من بيىهم « حالد بن صفوان بن الاهتم » يحرج رأسه من ناحية السماط ، فنظر اليه كأنما يستنطقه

ثم أشار اليه ليقترب منه ، فغادر « خالد » مكانه بينما جميع من فى المجلس تتطلع اليه وتتوجس أن تتحدث الى الخليفة بما تعكر صفوه

وبدأ « خالد » حديثه بقوله

ـــ أتم الله عليك يا أمير المؤمنين نعمه ، وجعل ما قلدك من هـــذا الأمر رشدا ، وعاقبة ما تؤول اليه حمدا ، وأخلصه لك بالتقى ، وكثره لك بالنماء ، ولا كدر عليك منه ما صفـــا ، ولا خالط سروره بالردى ، فلقـــد أصبحت للمؤمنين ثقة ومستراحا ، اليك يقصدون فى مظالمهم ، ويفزعون فى أمورهم ، وما أجد شيئا يا أمير المؤمنين هو أبلغ فى قضاء حقك وتوقير مجلسك ، وما من الله جل وعز على به من مجـــالستك ، من أن أذكرك نعم الله عليك ، وأنبهك لشكرها ، وما أجد فى ذلك شـــيئا هو أبلغ من حـــديث من سلف قبلك من الملوك ، فان أذن أمير المؤمنين أخبرته به

وسكت خالد لحظـــه ريثما يأذن الخليفه بتتمة الحـــديث بينما سكت الجمع دفعة كأن على رؤوسهم الطير ، ثم اعتدل الخليفة فى جلسته بعد أن تهيأت حواسه لسماع «خالد» الذى عرف بشجاعته برأيه وزهده فى زخرف الدنيا وزينتها وقال هشام

ـــ هات يا ابن الاهتم ولا تبق شيئا فلعـــل فيما تقول عظة لنا وعبرة لمن سيأتى بعدنا

استأنف « ابن الاهتم » حديثه بقول

ـــ قلت ياأمير المؤمنين ان ملكا من الملوك قبلك خرج فى عام مثل عامك هـــذا الخورنق والسدير فى عام قد أجـــدبت فيـــه الأرض ربيعهـــا على اختلاف ألوان نبتها فى ربيـــع مونق ، فهو فى أحسن منظر وأجمل مختبر بصعيد كان ترابه قطع الكافور وقد كان أعطى فتـــاء السن مع الـــكثرة والغلبة والقهر ، فنظر فبعد النظر ثم قال لجلسائه لمن مثل هذا ؟ هل رأيتم

مثل ما انا فيه ؟ وهل أعطى احد مثل ما أعطيت ؟ فتقدم اليه رجل حكيم من ثقاتنا حملة الحجة والمضى على ادب الحق ومنهاجه وقال للملك أيها الملك، انك سألت عن أمر افتأذن فى الجواب عنه ؟ قال الملك للحكيم نعم ، هات جوابك قال الرجل الحكيم أرأيت هـذا الذى انت فيه ؟ أشىء لم يزل فيه ، أم شىء صار اليك ميراثا وهو زائل عنك وصائر الى غيرك كما صـار اليك ؟ قال الملك انما هو ميراث زائل عنى وصائر الى غيرى قال الرجل فلا أراك الا عجبت بشىء يسير تكون فيه قليلا وتغيب عنه طويلا ، وتكون غدا بحسـابه مرتهنا قال الملك ويحك ! فأين المهرب وأين المطلب ؟ قال الرجل الحكيم اما أن تقيم فى ملكك فتعمل فيه بطاعة الله ربك على ماساءك وسرك ، واما أن تخلع تاجك ، وتلبس أمساحك ، وتعبد ربك حتى ياتيك اجلك قال الملك اذا كان السحر فاقرع على بابى فانى مختـار أحد الأمرين ، فان اخترت ما انا فيه كنت انت وزيرا لا تعصى ، وان اخترت فلوات الأرض وقفر البلاد كنت رفيقا لا تخالف ثم ان الحكيم قرع على الملك بابه عند السحر فاذا هو قد خلع تاجه ولبس امساحه وتهيأ للسياحة فلزم الاثنان الجبل حتى اتاهما الأجل

ولما ان فرغ ابن الاهتم من قص حكاية الملك ، نظر الى الخليفة كمـا نظر اليه جميع من فى المجلس ، فاذا به يبكى حتى اخضلت لحيتـه وابتلت عمامته ، وأخذ يمسح دموعه فى كمـه ولم يكتف ابن الأهتم بما رآه من هشام ، بل اندفع ينشد شعرا لعدى بن زيد

أيها الشـامت المعير بالدهـ ـر أانت المبـرأ الموفـور
ام لديك العهـد الوثيق مـن الأيا م بل أنت جاهل مغـرور
اين كسرى كسرى الملوك أنو شر وان أم أين قبلـه سـابور
وبنو الاصفر الـكرام ملوك الر وم لم يبق منهم مذكـور
لم يهبـه ريب المنـون فـباد المـ لك عنـه فـبابه مهجور
وتذكـر رب الخـورنق اذ أشر ف يوما وللهـدى تفـكير

سره مالــه وكثـــرة ما بمــــ لك والبحــر معــرضا والسـدير
فارعوى قلبــــه فقــال وما غبــ طـــه حى الى الممـــات يصـــير
ثم بعـــد الفـــلاح والملك والأمــ ـــة وارتهــم هنـــاك القـبــور
ثم صـــاروا كأنهم ورق جفـ فالوت به الصبـــا والدبور

الجم الذهول المجلس ، وأساب من المآقى دموع ساخنة ، وأحس الحضور أنهم لا يستمعون الى صوت شاعر ، ولكن الى صوت من الآخرة جرى به لسان « ابن الاهتم » يذكرهم بالمصير المحتوم

ثم تسلل ابن الاهتم من المجلس وانتحى بعيدا ، فأقبل عليـه الموالى ورجال الحاشية وقالوا يخاطبونه ما أردت الى أمير المؤمنين ! أفسـدت والله عليه لذته ونغصت مادبته قال ابن الاهتم

ـ اليكم عنى فانى عاهدت الله الا اخلو بملك الا ذكرته الله عز وجل

وفى الصباح ، بعــد ان صحا الخليفة من نومه ، أمر خـدمه وغلمانه بنزع فساطيطه ، وحزم أمتعته ، والعودة الى دمشق حيث لزم قصره ولم يبرحه حتى وافاه أجله فى اليوم الســادس من شهر ربيع الأول لعــام ١٢٥ للهجرة

بيت من الشعر

هدأت أنفاس بنى العباس بعد طول لهاث ، وبدأت الدنيا تطل عليهم بوجه ضاحك ، لما ان ذاع فى أرجاء البلاد نبأ مقتل « مروان بن محمد » الخليفة الأموى الثالث عشر والأخير على أرض مصر ، فانتهت بمقتله خلافة بنى أمية ، وانقضت أيامها التى قاربت مائة عام بما حملت به من خير وشر

وبويع بالخلافة لأبى العباس عبد الله أول الأمراء العباسيين فى شهر ذى الحجة من العام الثانى والثلاثين بعد المائة للهجرة ، لتبدأ بخلافته حكم بنى العباس الذى دام قرابة ستة قرون من الزمان

لكن خلافة « ابى العبــاس » لم تطل لأكثر من اربع سنين قضــاها « السفاح » فى مسفات انهكت جسده بالأمراض والعلل ، واستنزفت جهده وطاقاته فى مطاردة فلول الأمويين ، ومعالجة أعداء الدولة الجديدة من كل صنعة وحدب

ولما أن تولى الخلافة من بعده أخوه ابو جعفر المنصور ، كان الطريق قد تعبد اكثره ، وكانت سيول الدماء قد جفت وتوقفت ، وكان كثير من الأشواك قد نزع من طريق السير

ويوم ان بويع لأبى جعفر ، تنفس المسلمون الصعداء ، ورجــوا ان يعيشوا فى ظل خلافته حياة تسودها الأمان والسكينة ، حتى تحقن الدماء التى أسالتها العداوة والبغضاء بين الناس ، وهم بعد تجمعهم دين واحد خير دين أنزل للناس

وتحقق ما رجاه المسلمون فى المنصور ، وانقضت ايام خلافتــه لينة على المسلمين ، وراوه يتجاوز عن كثير من سيئات خصماء البيت العباسى ليكسبهم الى جانبه وليفيد من تجاربهم وقدراتهم ، ورأوه كذلك يلتفت الى الداخل ويتحسس مواضع الصدع فى كيان الامبراطورية الاســلامية فيرأبها ويقوم منها كل معوج

لقد ظل « المنصور » طوال خلافته التى دامت اثنتين وعشرين سنة ، يرسى قواعد حكم رشيد يولى زمام المسلمين بعد عـروب دولة دب فيها العفن وسرى فيها سوس الخراب والانهيار

وشيد « بغداد » لتكون حاضرة الخلافة العباسية بديلا عن دمشق ، ولما ان فرغ من بنائها فى عام ١٤٨ للهجرة ، حشد اليها العلماء من كل بلد واقليم ، فأمها الناس أفواجا ، ولم يزل تتعاظم ويزداد عمرانها حتى صارت أم الدنيا وسيدة البلاد ومهد الحضارة الاسلامية فى زمن الدولة العباسية

نعم كانت خلافة « ابى جعفر المنصور » خلافة تاسيس وارساء ، ولم تتجاوز كثير من المؤرخين الحقيقة حين نسبوا اليه انه المؤسس الحقيقى لدولة بنى العباس

❋ ❋ ❋

ولما ان تولى « محمد المهدى » ولد المنصور خلافة المسلمين بعد موته فى شهر ذى الحجة من عام ١٥٨ للهجرة ، كان ملك الدولة العباســية قد قويت اركانه واشتد عوده ، فاستقرت امور الدولة ، وهدأت الثائرات من حولها ، واخذ المهدى يتطلع الى ذلك الملك العريض من حوله ، فاذا به يمتد شرقا حتى تتاخم حدود الصين ، ويفسح غربا حتى يلامس شطآن اسبانيا

افتتح المهدى خلافته بالرفق عن الناس بعد ان زالت ضرورات الشدة التى كان يلجأ اليها المنصور ، فامر باطلاق من كان فى السجن على عهد ابيه ، الا من كان معروفا بالسعى فى الأرض فسادا .

وكان يجلس للمظالم ليستمع الى الشاكي والى المشكو في حقه ، ولما بلغه تدخل عماله وقبولهم الرشا لتقديم هذا النفر وابعاد ذلك النفر من الشاكين ، اتخذ بيتا له شباك من حديد على الطريق تطرح فيه شكايات الناس مكتوبة ، وكان الخليفة يدخل ذلك البيت وحده فيأخذ ما يقع بيده اولا فأولا وينظر فيه دون ان يقدم بعضها على بعض

ولقد كان الرخاء ويسر العيش متاحا للفقير وللثرى ، ولم يكن أحد يطمع فيما بين يدى أحد آخر ، ولم يكن هناك من يقطع الطريق على رزق انسان او عمله او ما تتيحه له الحياة في بغداد

كان عيون المهدى وآذانه تتعقب المفسدين في الارض فيمسك بهم ويحاسبهم بالقسط ، ويمنع ظلمهم ، ويرد الحق لصاحبه دون اعتبار لوشيجة قرابة أو صلة مصاهرة

ولم يكن بغداد في ايام المهدى يشكو من صوائب الحياة وأزمات العيش ، ولم يكن هناك سواق سوداء للغذاء والمأوى والكساء ، انما كان ضرورات الانسان مكفولة وحاجاته موفورة وهي بعد ، تجرى وفقا لخطط مرسومة وبأحكام محسومة .

كان اسواق التجارة والصنائع مبثوثة في ارجاء المدينة الكبيرة يقصدها الناس بالليل وبالنهار ليبتاعوا حاجاتهم ولوازم حياتهم من خيرات الله وما تنبته الأرض الطيبة ، وما يرد الى عاصمة العباسيين من بضائع الشرق والغرب

وكانت الخانات والحمامات قائمة في كل حي وشارع ، ليقصدها الغرباء للاقامة فيها ريثما يقضون حاجتهم في عاصمة الخلافة ، ثم يعودون من حيث جاءوا ، وقد شهدوا ما وصلت اليه حضارة الاسلام في دار السلام

اما حلقات العلم والدرس والتثقيف ، فقد كانت تتسنم المقام الرفيع في زمن الخليفة المهدى ، فالمساجد والمدارس ودور العلم غاصة دوما برواد

المعرفة وراعى التثقيف والاستزاده من علوم الاسلام الذى تألق وهجه ونوره فأضاء ظلمات البصائر والعقول

والحق ان بغداد فى زمن المهدى ، كانت تبدو فى النهار كحلية النحل الدءوب ، واذا ما أقبل الليل تبدت كالعروس المجلوة فى ليلة الزفاف .

ولقد كان الخليفة المهدى أديبا بطبعه مشغوفا بصنوف الحديث والفقه والشعر ، وكان قد تلقى العلم فى زمن ابيه المنصور على صفوة المؤدبين وأئمة الفقهاء وخيرة العلماء ، فأحاط بأخبار العرب واعلامهم فى الجاهلية وفى الاسلام ، واغترف من علوم الفقه والحديث والتواريخ والسير حتى بات اهلا لأن يخوض فى أحاديث العلماء وجدل الفقهاء ، ولم يكن مجلسه يخلو يوما من صفوتهم منذ كان وليا للعهد حتى تولى خلافة المسلمين

كان مجلسه ينعقد كل ليلة فى قصره بالرصافة بعد ان يكون قد فرغ من مشاغل يومه وأهل بيته ، فما أن يصلى العشاء الآخرة ، حتى يدخل الى قاعة المجلس ، ثم يطلب الى حاجبه أن يدخل العلماء والمحدثين والشعراء والفقها ، ويقضى اغلب ساعات الليل فى سمر شائق وحديث رائق عن شئون الدنيا والآخرة

لكن الخليفة « المهدى » لم ينم فى تلك الليلة من العام التاسع والخمسين بعد المائة للهجرة

انفض المجلس فى تلك الليلة ، وانصرف جلساؤه وسماره ، ووقف خادمه « أرجب » يرقب قيام الخليفة ليصحبه كعادته الى جناحه فى داخل القصر ، لكن المهدى ظل متكئا على سياج الشرفة المطلة على نهر دجلة الذى بدا لعينيه كأنه صفحة من الفضة ، فقد كان القمر بدرا فى هذه الليلة

اخذ المهدى يسترجع ما دار فى مجلسه من جدل وما قيل من قصائد وأشعار ، وذكر ما دار بينه وبين « اسحق بن ربيع » المحدث ، وما احتملا

عليه حول اعظم بيت قالته العرب في الفخر قال المهدى ان ذلك البيت من الشعر قد باحت به الخنساء في رثاء أخيها صخر

وان صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وعارض « ابن ربيع » الخليفة في ذلك البيت واختار سوق بيتا وراء بيت في مجال الفخر ، لكن واحدا من هذه الابيات لم يعدل ، في رأى المهدى بيت الخنساء

لقد انفض المجلس دون أن يرضى واحد منهما برأى صاحبه ، فطلب المهدى الى ابن ربيع ان يحتكما الى احد رواة بغداد ، ورضى ابن ربيع بما يراه امير المؤمنين في هذا الشأن

وذكر المهدى أيضا انه سمع في هذه الليلة بيتين من الشعر للحسين ابن مطير من مخضرمي الدولتين في تغير الحال بالانسان

وقد تغدر الدنيا فيضحى فقيرها غنيا ويغنى بعد بؤس فقيرها
فلا تقرب الأمر الحرام فانه حلاوته تفنى ويبقى مريرها

لقد احب المهدى حقا في تلك الليلة ان يقف على مدى روايته في بيت الخنساء ، واحب لو يتذكر البيت الثالث من شعر ابن مطير ، فقد كان يعلم من قبل انها ثلاثة ابيات يكمل بعضها بعضا فيستقيم بها المعنى الكبير الذى قصد اليه الشاعر العملاق

غاب عن المهدى ذلك البيت الثالث فجافاه النوم في تلك الليلة ، وبلبل ذهنه ، وود لو بعث بمن يأتيه باحد ائمة الرواة في بغداد ساعتئذ لولا ان الليل ارشك ان ينقضى ، وفي النهاية قام من جلسته ودخل الى جناحه ، وقد عزم ان يرجىء الأمر حتى الصباح

* * *

في سوق الرياحين باطراف بغداد ، كان هناك رجل آخر هرب منه النوم وجافاه في تلك الليلة

كان واحدا ممن أدركتهم حرفه الأدب، فعمل راوية للاحادث والأخبار العرب وسعرائهم ، ولم نكن محلس علم فى بغداد سكر عليه علمه وأدبه وصفاء حافظته ، ولم نكن هو بدوره نعسى غير مجالس العلماء ومحافل الفقهاء ، حتى الخليفه نفسه كان يعرف قدره ويدعوه الى محلســه ليفيد من عذب حديثه وستمع منه الى سعر القدماء والمحدثين

نعم كانت حرفة « المفصل الضبى » صنعة الررق سحيحه العطاء ، والعلماء من قبل ومن بعد ، يعطون الكسر ولا يأخذون سوى النرراليسر

فى تلك الليلة بات المفصل مؤرق الجفن ساهر الطرف يقلب امور حياته على كل الوجوه ليخلص الى محرج ريحه من هذه الحياة السمقه ، بعد ان انجب العديد من البنين والبنات ، والررق ضنين على امثاله من العلماء ، لكنه فى سخاء البحر على الأغبياء والجهلاء !

كان قد غرق حتى اذنيه فى بحر من الدين ، فهو فى هم بالليل وفى مذلة بالنهار

وانقضت تلك الليلة ثقيله وبطيئة على المفضل ، حتى اذا ما لاح ضياء الفجر ، قام فاغتسل وتوضأ ثم صلى واخذ يبتهل الى خالقه ان يفرج كربته وان يرفع عنه غمه

ولما ان فرشت الشمس نورها ودفاها على الكون والكائنات ،غادر المفضل داره وانتحى مكانا ظليلا امامه ، وأسند رأسه الى الجدار ثم ترك العنان لافكاره تروح هنا وتغدو هناك كيفما شاءت

وداهمه نعاس اراحه الى حين من همومه الثقيله التى صاحبته طيلة الليل ، ثم افاق على اصوات من حوله ، ولما ان فتح عينيه ، ابصر حــود الخليفة يتحلقون به من كل جانب

ســـأل المفضل رئيس الحرس وهو بين النوم واليقظــة ما الخبر ياسيدى ؟ قال رئيس الحرس هنا الى لقا امير المؤمنين انه يطلبك الساعة

اسقط فى يد المفضل واضطربت جوانحه ، وايقن ان هذه الدعوة الى لقاء الخليفة فى هذه الساعة المبكرة من النهار ليس من ورائها خير ، وانما شر مستطير

وطلب الى رئيس الحرس ان يأذن له بلقاء اهل بيته وعياله قبل ان يذهب معه ، فقال رئيس الحرس عجل اذن ولا تستهدف لغضب أمير المؤمنين

ودخل المفضل الى داره فاغتسل وتطهر ولبس ثيابا بيضاء وصلى ركعتين ، ثم سلم على أهل بيته وهو لا يعلم مصيره فى ذلك اليوم

* * *

فى الطريق الى قصر الخليفة فى الرصافة احذ المفضل يحدث نفسه ان الخليفة انما طلبه فى ذلك اليوم لسعاية واش أو استجابة لواحد من نقلة السوء ذكر ساعتئذ تلك الأنباء التى صحبت خلالها « ابراهيم العلوى » وقت ان خرج على « أبى جعفر المنصور » فى عام ١٤٥ للهجرة ان المهدى لابد قاتله فى ذلك اليوم الاسود

قال المفضل لنفسه مرحبا اليوم بالموت لقد تقلبت فى مسالك الحياة ، صافت على سبل العيش مرحبا بها خاتمة وعلى الله رعاية فلذات اكبد من بعدى انه خالقهم فى هذه الدنيا فهو بهم مسئول ، وانه من قبل ومن بعد اكرم مقصود ومأمول

ثم افاق فى النهاية من هواجسه لدى أن راى نفسه امام المهدى فى صدر مجلسه ينظر اليه بوجه مشرق تشع البسمة العريضة على صفحته الوضيئة

قال المهدى مرحبا بالمفضل امام الرواة فى بغداد

احس « المفضل » ساعتئذ ان جبلا من الهم يزاح عن صدره ، فاستتب دقات قلبه الواجفه ، وهدأت أنفاسه الراجفة ، وتقدم الى حيث مجلس الخليفة ، فتناول رداءه واخذ يقبله ويدعو له بالاسعاد وهناءه الحياة والعمر الطويل

ولمح المفضل « ابن بريع » فى ناحيه من المجلس ، ولم يكن قد رآه ساعة دخوله ، فأيقن ان الخليفة قد دعاه فى هذه الساعة فى شأن من شئون الحديث

واوما ابن بريع الى المفضل ان يهدأ خاطره ويسكن جأشه المضطرب، واخذ يبتسم فى وجهه ، فتلاشت من نفسه بوارع الجزع وخفقات الوجس

قال المهدى خبرنى يامفضل أفادنا الله بعلمك ما أفخر بيت قالته العرب حتى يوما هذا ؟

سكت المفضل لحظة ثم قال اعز الله امير المؤمنين وخمله بالعقل الراجح والرأى الناجح ما اظن الا انه بيت الخنساء فى رثاء اخيها صخر
وان صخـــرا لتأتـم الهـداة به كأنه عـلم فى رأســـه نار

قهقه المهدى ضاحكا وأخذ يلفت حواليه حتى وقعت عينـاه على ابن بريع فقال قد قلت ذلك لابن بريع فأباه قال المفضل الصواب ما قاله امير المؤمنين ، وقد اتفق اغلب الرواه على بيت الخنساء

واومأ المهدى الى المفضل ليقترب منه ، ثم اذن له بالجلوس فى مواجهته وقال فلتحدثنى يا مفضل فى هذه الساعه قال المفضل أى الحـديث اعجب الى امير المؤمنين ؟ قال المهدى لنكن الحديث عن النساء

اخذ المفضل يحدث المهدى عن أحوال النســاء وطبائعهن وصنوف أمزجتهن وما يحملنه من أوصاف الجمال والقبح حديثا عجيبا لم يسمع به الخليفة من قبل حتى انتصف النهار ، وفى النهاية سأله وهو يهش فى وجهه يا مفضل ، اسهرنى البارحة بيتان لابن مطير ، وكنت اعلم ان لهما ثانيا بالبا ولكنه لم يحضرنى

سأل المفضل لو شاء امير المؤمنين ذكر البيتين مشكورا قال المهدى

وقد تغـدر الدنيا فيضحى فقيرها غنيـا ويغنى بعد بـؤس فقيـرها
فلا تقـرب الامـر الحـرام فانه حلاوته تفنى ويبـقى مـريرها

ساعت بسمة راضية فى وجه المفضل ، فرفع ناظريه الى وجه المهدى الذى بدا لعينه كأنما هو طالب علم يخطو على أول الطريق ، ونسى ساعتها أنه فى قصر الخلافه ، وأنه قاعد بين يدى من يملك الرقاب فى ذلك الملك الواسع العريض أحس المفضل ساعتئذ أنه حقا ذلك العالم الواثق من علمه وعمق ثقافته ، وان المهدى ومحدثه ابن ربيع ، انما هما طالبا علم يسعيان الى التزود مما خلفه الأقدمون وما يبتدعه المحدثون

قال المفضل يحدث المهدى اعز الله امير المؤمنين وجعله ملاذا للمسلمين ان لهذين البيتين اخا ثالثا يكمل به المعنى فيتألق فيه المعنى ذلك البيت الثالث للحسين بن مطير هو

وكم قد رأينا من تغير عيشه واخرى صفا بعد اكدرار غديرها

والحق ان « المهدى » كان رقيق القلب رهيف الحس ، وساعة ان سمع ذلك البيت ، ارتجف قلبه واهتزت خفقاته واحدث دموع ساخنة تنساب من عينيه لما ذكر خلافة بنى امية التى درست ايامها وتغيرت الحال برجالها ، ثم اقبال الدنيا على بيت بنى العباس حتى صارت الخلافة اليهم فقال يسأل محدثه يا مفضل ، كيف حالك ؟ قال المفضل كيف يكون حال من هو مأخوذ بعشرة آلاف درهم لا يدرى كيف يؤديها الى اصحابها ؟

سكت المهدى لحظه ثم اشرق وجهه بسمة عريضة ، والتفت الى ابن ربيع ثم قال اما وقد رضى ابن ربيع بحكمنا فى افخر بيت للعرب ، فقد رأينا ان نؤدى للمفضل عشرة آلاف درهم واما عن البيت الثالث لابن مطير ، فان أمير المؤمنين يرى ان يأخذ فيه بثلاثين الف درهم وان يكون واحدا من جلسائنا فى كل ليلة

وغادر « المفضل الضبى » قصر الرصافة فى ذلك اليوم يحمل عطاء الخليفة ، واضحى غنيا بعد بؤس ، وسعيدا بعد نحس

فهرس


مؤسسة
دار التحرير للطبع والنشر
(مطابع شركة الإعلانات الشرقية)